A.U.B. LIBRARY

N. MARHOUL
BINDERY
11 FEB 1974
Tel. 260458

089.927
D213mA
1953
c.1

منشورات دار الكتب الوطنية بحلب

٢

المحاضرات العامة

لعام

١٩٥٣

توطئة

يسر « دار الكتب الوطنية » بحلب ان تقدم الى رواد المعرفة الكتاب الثاني من منشوراتها ، وقد ضم المحاضرات التي القيت في قاعتها الكبرى خلال عام ١٩٥٣ .

ويعلم حضرة القراء الكرام اننا وضعنا في بداية هذا العام برنامجاً ضخما لموسم المحاضرات فدعونا صفوة من كبار رجالات الفكر في العالم العربي . ابى بعضهم دعوتنا واعتذر البعض لظروف طارئة ، ومع ذلك فقد كان الموسم ، والحمد لله ، حافلاً ، وكان الاقبال على المحاضرات عظيماً جداً ، وان دل هذا على شيء ، فعلى مدى شغف الحلبيين بهذا اللون من حياة الفكر ..

هذا ونحن مازلنا على النهج الذي انتهجناه ، وهو احياء هذا الموسم الأدبي كل عام بدعوة رجالات الفكر للتحدث الى ابناء الشهباء في كل ما يتصل بأدبنا وثقافتنا وقوميتنا ، وفي كل مايمر على مسرح العالم من تيارات الفكر التي تتصل بنا وتنير لنا سوى الطريق .

وكل مانرجوه ان يوفقنا المولى الى اداء رسالة الفكر على وجهها الأكمل والله الموفق الى الصواب

سامي الكيالي

مدير دار الكتب الوطنية بحلب

٣ تشرين الثاني سنة ٩٥٣

دار الكتب الوطنية بحلب

لدكتورة درية شفيق

السيدة امينة السعيد

الدكتور فؤاد صروف

الاستاذ فؤاد الشايب

الدكتور محمد حسين هيكل

الدكتور احمد أمين

الاستاد ميخائيل نعيمة

المحاضرة الاولى

العلم : وسيلة وثقافة

الدكتور فؤاد صروف
نائب رئيس الجامعة الاميركية

= القيت بتاريخ ٦ آذار سنة ٩٥٣ =

سيراني ، سارني

حضرة مدير الدار

تفضلتم فدعوتموني الى المحاضرة في حلب الشهباء ، فشرفت يوم تلقيت الدعوة ويوم لبيتها ، ومنذا الذي لايشرف ، إذ تدعوه الشهباء الى المحاضرة فيها ، ومنزلتها هي منزلتها ، في تاريخ الفكر العربي والادب العربي . ومنذا الذي لايشرف ، إذ تدعوه الشهباء الى المحاضرة فيها ، بلسان سفيرها الفكري ، الاستاذ سامي الكيالي هذا الرجل الذي لم يزل منذ ربع قرن أو أكثر ، رسول خير بين ادباء العرب ووصياً على الكتاب العربي ، والمجلة العربية. واني لأنظر اليه ، واستحضر جهاده في احوال كفيلة بهبة العزائم، ولكنني أراه اليوم اصدق شوقاً الى خدمة الكتاب العربي ، وامضى عزيمة ، ووالله إنهذه لصفة الابطال ، اطال الله عمره وبلغه مايروم .

* * *

١

ليس في طاقة الأنسانية أن ترد العقارب المتحركة ، على صفحة ساعة الزمان ، فقد صنعت بأيديها العصر الذري ، ولن يسعها ، ولو ارادت ، ان تعود القهقرى الى العهد الذي سبق اليوم الثاني من شهر كانون الاول سنة ١٩٤٢

وقصة الحضارة على سطح الأرض ، في شطر عظيم منها قصة انتصار الانسان المطرد على القوى المادية واخضاعها لأغراضه ، أفيستطيع اليوم أن ينتصر على الطاقة الذرية ، أم يمنى الهزيمة ؟ نعم لقد اخضع الطاقة الذرية ، لبعض مايريد ، ولكن أفي دخيلة نفسه من القوة الروحية والخلقية مايتيح له أن ينتصر عليها — أن يمتنع عن استعمالها الا في الأغراض النافعة المجدية على البشر ، وما اكثرها !

ان الأنسان الذي عاش في العصر السابق لعصر التاريخ المدون ، وأوقد النار الاولى ، بدأ عصراً جديداً في التاريخ ، ولكنه حتما لم يتصور الافران المتسعرة التي يصهر فيها الحديد في أيامنا هذه ، ويصنع منه الصلب على اختلاف ضروبه وخواصها .

وجيمزوط الذي كشف الطريق الى الانتفاع بقوة البخار الحبيس ، بدأ شيئاً احدث انقلابا في حياة الناس ، ولكنه لم يتصور البواخر الحديثة الضخمة الفاخرة التي تشق اليم في محيطات الأرض . وان كان بعضها او اكثرها قد تحول في العصر الحديث الى الانتفاع بطاقة النفط .

وبنيامين فرانكلين الذي جرب بعض التجارب الاولى في الكهرباء ، لم يخطر له ان هذه الطاقة سوف تضيء يوما ما الوف المدن ، وتحرك الوف الآلات ، وتنقل نبرات الصوت البشرى وصور المرئيات الى عشرات الملايين من المستمعين والمشاهدين .

ونحن اليوم كذلك لانستطيع ان نتصور تصوراً دقيقاً مفصلا كيف يحتمل ان تؤثر الطاقة الذرية في مستقبل البشر على سطح الارض ، ولا كيف تغير من احوال معاشهم وطرائق تفكيرهم .

ولكننا نعلم ان كل قوة جديدة يلجمها الانسان ويخضعها لمرامه تتيح له قدراً جديداً من الحرية يستمتع به ، فالسيارة تتيح لصاحبها حرية في الذهاب والاياب ، والسير والوقوف ، لاتتاح لراكب القطار والطائرة توفر لراكبها — في حدود الاتفاقات والعقود — تخطي البحار واليابسة والحدود القومية في مركب واحد وفي ساعات قلائل . وفلق الذرة كذلك يتيح لنا من القوة العظيمة مايجل عن الفهم والتقدير . فالطاقة التي تخرج من رطل واحد من اليورانيوم ، تعدل طاقة الحرارة التي تخرج من مئات الأطنان من الفحم أو ألوفها . وهذه الطاقة العظيمة قد تستعمل للخير ، او قد تستعمل للشر . ففيها تنطوي قدرة هائلة ، على النفع أو على الاذى ، وعلى البناء والانشاء أو على التدمير والهلاك .

وهي بالاضافة الى ماتقدم لاتلبث على الزمن أن تؤثر في مناهج الفكر والخلق ، ونظم الأجتماع ، فاختراع الطائرة وصنع القنبلة الذرية جعلا العزلة الاميركية من مخلفات زمن مضى ، وانما تمسك بأهدابها فريق من اهل العنت . وقيام الدليل على التطور العضوي غير نظرة جماعات كثيرة من الناس الى الكون والحياة ، وشيوع السيارات والطائرات اسبغ على قول علي ، رضي الله عنه .

— الناس اعداء ماجهلوا — معنى أراده هو ، ولكن الناس لم يفهموا عنه يومئذ ما يفهمون اليوم أو ينبغي ان يفهموا .

وهذه هي المشكلة التي يواجهها جيلنا ، بل هي رأس جميع المشكلات التي يواجهها جيلنا . لأن عالما موصول الاواصر ، تستبد به سورة التنافس على الاسلحة الذرية هو عالم لايطاق ولن يجد فيه احد من الناس ، في اي مكان على سطح الارض ، لاراحة ولاطمأنينة ولاسلاماً ولا حرية .

ولو وقف مؤرخ فيلسوف على ذروة عالية من ذرى التاريخ في القرن الثلاثين او القرن الاربعين ، ورمى ببصره الى ما سبق من العصور ، كما يرمي المؤرخ اليوم ببصره الى عصر سيف الدولة الحمدانى او عصر يوليوس قيصر ، فبماذا يأتى يذكر القرن العشرين ؟ أيذكره بالمكتشفات العلمية التي فتحت طائفة كبيرة من مغاليق الكون والحياة ؟ ايذكره بالمخترعات العجيبة التى يسرت اسباب الحياة ؟ أيذكره بالمذاهب السياسية والاجتماعية التي اخذت بها فئات شتى من اهل الارض وتطاحنت في سبيلها ؟ ايذكر بالحروب الدامية المدمرة المهلكة ، من أجل الاستعلاء او السلطان او الحرية لست ادري ولكنني أجرؤ فأذهب الى القول بانه سيذكر القرن العشرين بأنه القرن الأول منذ فجر التاريخ المدون ، الذي صارت فيه منافع الحضارة بغير استثناء خليقة ان تتاح لجميع الناس — لو عقل الناس .

فاذا صح هذا الرأي — والدفاع عنه يستغرق بحثا مفصلا — فالعلم الحديث ينبغي ان ينال منا عناية عسى ان تكون معواناً لنا على فهم وظيفته في عمران هذا القرن ، وعلى ماينبغي لنا حياله كامة عربية ، تلتفت الى الماضى فترى بين يديها نصيبها الكريم في تشييد صرح الفكر الحديث ، بين علم وفلسفة وفقه ، ثم تلتفت الى المستقبل فيشوقها ان يكون لها مرة اخرى نصيب كريم في الاضافة اليه وتعميم منافعه ، وهذه العناية هي محور محاضرة الليلة .

٢

يمتد العلم الحديث من الرياضة العالية الى الذرة وجسيماتها الى الشموس الكبار والسدم العظيمة المنثورة في رحاب الكون ، ومن دراسة الاحياء على

اختلاف قبائلها واقسامها وانواعها ، واسرار كفاحها ، واساليب توارثها الصفات على كر الدهور ، الى دراسة الانسان سيد المخلوقات ، بل هو يسمو او يحاول ان يسمو الى دراسة العقل الانساني وخفايا التفكير واطوار النفس . ثم تراه متغلغلا في بناء الحضارة الحديثة ، فالآلة على انواعها من ابسطها تركيبا الى اعقدها تسيطر على نواحي العمل فيها ، وعلى احوال الاجتماع البشري ، فلا نكاد نعيش ساعة بغير ان نحتاج خلالها الى الآلة او بعض منتجاتها . وعلى قدر ما تزداد الحاجة الى منتجات الصناعة ، ويكثر تداولها ، تزداد الحاجة الى تنظيم الصناعة دق تنظيم واحكمه ، والى سيطرة العقول المبدعة والعقول المدبرة ، فيفضي ذلك بدوره الى التأثير في نظم الجماعة ، سواء أسياسية كانت أم اجتماعية . ومن اشق الامور على الباحث ان يقيم حائلا فاصلاً مميزا بين العلم النظرى والعلم العملي ، فما يكون في حال ما علماً نظرياً محضاً ، تراه وقد انقلب في الحال التالية علماً عملياً يؤثر في مناهج الحياة واساليب التفكير نفسها . ولعل أبلغ مثل يضرب على هذا هو مثل الاذاعة اللاسلكية ، التي تعد في ناحية من نواحيها سببا من اسباب التربية والمعرفة في عهدنا هذا . وبصرف النظر عن كون هذه التربية صالحة او تربية فاسدة ، وعن كون المعرفة هي معرفة خالصة او مغرضة فلن تجدوا اثنين يختلفان في ان ما يذاع بأساليب الاذاعة اللاسلكية ، يؤثر في تفكيرنا وشعورنا ومعاشنا — على تفاوت . وانا اظن انه لابد ان يؤثر على طول المدى في اساليب الكتابة ايضاً ، لأن ما يكتب ليذاع يجب ان يتصف بصفات بيانية خاصة ، تختلف عما الفناه فيما يكتب ليقرأ . — وعسى ان يتصدى لهذا البحث ناقد من النقاد ذوي البصيرة والجلد ، فيفصله تفصيلا — ومع ذلك فان هذه الاساليب العجيبة ، التي دخلت البيوت والمدارس ، وانتشرت في الشوارع والمقاهي ، وفي السفن تشق عباب اليم ، والطائرات تفري عباب الهواء ، والخيام مضروبة في فيافي الرمل او مفاوز الجليد كانت قبل قرن من الزمان ، او قبل ثلاثة ارباع القرن ، بضع معادلات رياضية لاغير : كانت رموزاً استخرجها عقل عالم جبار — جيمز كلارك مكسول — ودونها على الورق . وعندما ذهب الى لقاء ربه بعد ذلك كان من النادر بين رجال

العلم من اقام لها وزناً ، أو أعد لها ، حتى في الخيال البعيد ، منزلة اجتماعية كالمنزلة الاجتماعية التي ادركتها الآلات والاجهزة التي بنيت عليها في يومنا هـــذا . ففي هذه المعادلات اثبت مكسول أن في الفضاء امواجاً كهربائية مغنطيسية تشبـــه امواج الضوء المرئي في خواصها والنواميس التي تخضع لها ، وقبل ان يشرف العقد التاسع من القرن الماضي على نهايته ، كان هرتز قد اثبت ان لهذه الامواج الكهربائية المغنطيسية وجوداً حقيقياً وقد تبينها بأجهزة صنعها . وقبل ان ينقضي العقد الاخير من القرن الماضي كان لودج وبرانلي ؛ قد مهدا الطريق لاستعمالها وكان ماركوني قد استعملها . وما تم لمعادلات مكسول قد تم شيء كثير منـه لمعادلات اينشتين فاليها يرتد سر الطاقة الذرية وهو خليق ان يتم للطاقة الذرية نفسها ، اذا وقانا الله برحمتـه من تدميرهـا .

والثقافة من حيث هي صورة للقوى الاجتماعية الفاعلة في تطور البشرية ، هي مجموعة الآراء والطبائع والتقاليد والمقاييس الاجتماعية والخلقية والفنية ، التى تحرك الناس في احوال معينة الى عمل ما . اوالتي يتخذها الفرد في بيئة ما ، او تتخذها الجماعة مقياساً لعمل ما ، من حيث النفع والضر ، والخير والشر ، والقبح والجمال . فما اراه انا جميلا في لبنـان أو سوريا ، لايراه الاسكيمو جميـــلا في الاصقـاع القطبية المتجمدة ، وما اراه أنا خيراً في بيئتي لايراه غـــيري خيراً في بيئة اخري ، وما اراه ينفعني هنـا ، قد يراه غيري يضره هنـاك . فالثقـافة بهذا المعنى متصلة بأطوار الاجتماع على سطح الارض ، متأثرة بأحوال المعـاش والاقتصاد ، وقواعد التفكير واصول العلم ، متلونة بوجه عام بالنظرة السـائدة الى الكون والحيـاة ، واذا شئتم الايجاز فقولوا هي النظرة الغالبة على جمـاعة ما الى الكون والحياة والاجتماع . فلفظ «الثقافة» في هذه المحـاضرة ، لا اعني به تثقيف العقل بضروب العلم وفنون الادب على حسب ماجاء في المعجمات مهما يكن لهـا من شأن واثر ، بل اعني به مايستعمله له علمـاء الانسـان والاجتماع من تعبير لوصف اختبار الانسـان ـ فردا وجمـاعة ـ ، أي اساليب الحيـاة

الاجتماعية التي تنطبق خاصة على جماعة من الناس ، يتقاسم افرادها الاختبار الاجتماعي في وقت ما ومكان ما . أي إن اللفظ في علم الاجتماع يعني ما ينطوي عليه «الاختبار الاجتماعي للجماعة » اى فحوى ذلك الاختبار . ولسنا في حاجة الى تتبع اصول « الثقافة » في هذا المعنى ، حتى نصل الى اصولها ومنابعها ، يوم تمكن الانسان ، عن طريق اختراع اللغة أولاً ، من اقامة اركان الارث الفكري . فهذا التتبع طويل ممل — على ماله من خطر الشأن — وهو في نواح كثيرة منه ، موغل في القـــدم ، ملفوف بالغموض ، وعلى كل فلست أنا له ، ولا هذا مقامـــه الليلة .

والثقافة في هذا المعنى قسمان بوجه عام : قسم اجتماعي « أو موضوعي » كما يصفه بعض العلماء ، وقسم ذاتي . وبحث القسم الأول لايقتصر على الادوات التي تستعملها الجماعة وحسب ، بل يشمل الأثر الاجتماعي والنفسي الذي يحـــدثه استعمالها في حياة الجماعة . وبالثقافة الذاتية ، يقصد ماينتصفى من اختبار الجماعـــة ويتقطر في نفس الفرد من معتقدات وتقاليد وبواعث نفسية وخلقية ، فيصبح قوة مسيطرة على سلوكه .

فالموضوع الذي تصديت له الليلة ، متشعب ، معقد ، واضح حينا ، غامض احياناً ، بيد ان تشعبه وتعقيده المنبثين في ارجائه ، المستمدين من اتصاله بأصول الحياة الانسانية وأدوار الاجتماع البشري في شتى اقطار الارض ، يجب ان لايحول دون المامة سريعة ببعض نواحيه ، وان كان فيها ترديد لبعض مانشرته واذعته في هذا الموضوع في العقدين الاخيرين من السنين . بل ان هذه الالمامة لابد منهـــا ، لان الامر غير مقتصر على فكاهة عقلية نستمتع بها ساعة ونُنسَاها ، بل هو متغلغل في حياتنا اليومية وتفكيرنا وسلوكنا الاجتماعي . بل أذهب الى ابعد من هـــذا فأقول ان الاهتمام بهذه الناحية من حياتنا القومية والدولية عنصر اصيل فيما نعد انفسنا له او نصبو اليه من مشاركة في حمل قسطنا من اعباء الانسانية في عصرها المقبل .

أما أولاً فلا فرار من التأثر بالعلم وآياته لأنه يحيط بنا من كل ناحية . سرحوا الطرف في جنبات هذه الحجرة التي اجتمعنا فيها ، فماذا ترون ؟ أنواراً متلألئة استنبط العلم طاقتها من قوى كامنة في ذرات المادة المتناهية في الصغر . وجدرانا اقامها العلم وسواها على اصول محكمة من الهندسة والطبيعة والكيمياء ، وحريراً صنعه العلم من الخشب او النفط او الجير والهواء فغلب دودة الحرير في ميدانها ، وملابس اتقن العلم فتل اليافها وغزلها ونسجها بآلات كأنها الاحياء العاقلة ذكاء ، ولكنها تفوق الاحياء العاقلة قوة ودقة ومضاء .

أو زوروا حقلا من حقول التجارب الزراعية ، تروا فيها الاسمدة الكيميائية وقد حبس فيها نتروجين الهواء الطليق بقوة التركيب وحيل التأليف الكيميائي ، واصنافاً من النبات والحيوان ثبت فيها العلم الصفات والخواص المميزة التي يرغب فيها الانسان ، بالتوليد والتأصيل والانتخاب ، وامراضاً في النبات والحيوان ، دانت — او ستدين حتما — لصبر العلماء وذكائهم وشوقهم الى استطلاع المجهول .

أو تأملوا جسد الانسان ، كيف مكن العلم الاطباء من أسرار حياته وقواعد صحته واسباب مرضه ووسائل علاجه ؟ فمنذ سبعين سنة أو ثمانين كان الأنسان لا يعرف شيئاً اولا يكاد يعرف شيئاً عن الجراثيم التي تسبب الامراض واذا نحن اليوم نعلم ان الهواء والتراب يعجان بهذه الاحياء الدقيقة ، المفيدة احياناً ، في التخمير والتحليل والدباغة والتجبين ، المضرة احياناً أخرى بما تنفثه في اجسام الاحياء من بواعث السقم . وقد اصبحت معرفتنا هذه سبيلنا الى استعمال المطهرات ومضادات الفساد واساليب التلقيح والحقن للوقاية ، فنرد عوادي الأوبئة قبل وقوعها ، أو ندفع كوارث الامراض عن كثير من المصابين بها .

أو خذوا الطاقة المحركة التي اصبحت رهن تصرفنا ، سواء أموزعة كانت فيما نراه متحركا كل يوم من سيارة أو طائرة أو حافلة ، او ما يوزع بغير أن نراه ولكننا نرى اثره ، كالطاقة التي تتحول ضوءاً في المصابيح ، او قوة محركة في المعامل . وقد حسب حاسب منذ سنوات ان الطاقة المستعملة في الولايات المتحدة الاميركية ، المستمدة من الفحم ومساقط المياه والنفط والغاز الطبيعي اذا هي وزعت على سكان تلك البلاد ، بلغ متوسط مايصيب الواحد منهم طاقة ثلاثين حصاناً او تزيد ولعلها اليوم اكبر قدراً . وليس المرء في حاجة الى خيال جامح لكي يتصور تأثير استعمال هذا القدر العظيم من الطاقة الميكانيكية في راحة الناس ونشاطهم واحوال الناس ونشاطهم واحوال العمل وسرعة المواصلات ووفرة المصنوعات ، اي في احوال المعيشة بوجه عام ، وما يتيحه كل هذا من فرص للمتعة الاجتماعية والفكرية والفنية والرياضية اذا عقل الناس واصابوا من امرهم رشداً ، كل على حسب هواه ، أي لنواح اصيلة متعددة من الثقافة العامة والخاصة .

نعم ان التوزيع غير عادل ، ومجال التحسين في احوال العمل والعمال واسع ، وقد اعود الى هذه الناحية من البحث في فقرة تالية ، ولو باشارة عابرة اخرى ، ولكنني اظن انني قلت مالا يترك مجالاً للشك في منزلة العلم الحديث ومنتجاته في حياتنا اليومية . وهذه الحياة هي القالب ، او التربة التي يزرع فيها « اختبارنا الاجتماعي » ، أي تزرع فيها « الثقافة » في معناها الاجتماعي وتتجلى . وليس العلم سوى عنصر واحد من عناصر هذه « الثقافة » ، وهو فيما اظن من اضعفها أثراً حتى الآن ، حتى في البيئات الاوربية والاميركية ، يفوقه في ذلك الدين والتقاليد والعادات المتوارثة والشائعة ، ولكنني قصرت الكلام عليه ، لانه عماد القول في هذه المحاضرة ، ولأن منزلته تعلو علواً مطرداً سريعاً قد يبلغ بعد عهد اعلى مقام .

وأما ثانياً فان جسم الانسان يغتذي بعناصر البيئة التي يعيش فيها .غير عناصر غذائه تصب تغييراً في بنائه وصفاته أو خواصه الجسمانية ، وما يقوم عليها من خصائص العقل والروح . بل لقد ذهب بعض العلماء الى ان قصر القامة في شعوب اليابان عائد الى غذائهم الخاص ، وان مرض جحوظ العينين وما يتبعه احياناً من تبلد العقل في بعض الولايات السويسرية سببه قلة عنصر « اليود » في غذاء سكانها وفي تربة ارضها وهوائها .

والعقل الانساني أيضاً ، يغتذي بعناصر البيئة العقلية التي تحيط به ولا يستطيع ان يفلت منها . بدل عناصر تلك البيئة ومقوماتها ، فلا بد من ان تحدث تبديلا في صوره الذهنية ، واساليب نظره الى الاشياء وسلوكه الاجتماعي ، والاغراض العليا التي يسمو اليها ، ولا سيما اذا حدث التبديل عندما يكون المرء في سن الطفولة الغضة .

وأثر العلم في حياة الانسان ينبع من ثلاثة مصادر . أما المصدر الاول فالانتفاع بفوائد تطبيقه ، وهي الفوائد التي نجمت عنها وسائل حفظ المدونات وتسهيل نشرها بالطبع والتوزيع ، وطرق المخاطبات السريعة التي قربت الأمم والافراد بعضهم الى بعض ، وعدت الحواجز الجغرافية والحدود السياسية.وفوائد علوم الاحياء في اتقان طرق الزراعة وتحسين انواع النبات والحيوان بالتأصيل والانتخاب ، وما انبثق منها وبني عليها من علوم الطب والصحة العامة ، وهي التي مكنتنا من مكافحة الاوبئة وخفض معدل الوفيات واطالة متوسط العمر،واساليب الصناعة الواسعة النطاق التي تمهد مصنعاً ضخماً من مصانع السيارات ان يصنع ثلاثة الاف سيارة في اليوم ، وقد شاهدت بعضها بنفسي وهي تخرج تترى دقيقة بعد اخرى ، او يمكن مصنعاً كاحد مصانع لنكشير او المحلة الكبرى في مصر او دمشق او بحلب الشهباء من نسج الوف الياردات من القطن أو الصوف في اليوم الواحد بل في الساعة الواحدة ، أو تمكن احد المهندسين من بنيان آلة تصنع

ثلاثة آلاف زجاجة في الساعة دون ان تمسها يد او ينفخ فيها نافخ .

وأما المصدر الثاني فهو الاسلوب العلمي في البحث ، الذي بنيت عليه جميع المكتشفات والمخترعات . هذا الأسلوب الذي يتوخى الحقيقة في ميدان التجربة والمشاهدة ، ولا يكتفي باستنباطها من التأمل في النفس ، أو باستنتاجها من اقوال الفلاسفة الاقدمين . قد يستخدم الاسلوب العلمي طريقة الاستنتاج في بعض مراتبه المتوسطة ، ولايستغنى عن انشاء النظريات لتفسير مايجهله ، ولكن صفته المميزة هي التجربة والمشاهدة ، فهو في قول العلامة « وذم » محكمة الحقائق . وقد اصبحنا بعد شيوع هذا الاسلوب لانحاول ان نمتحن الاقوال التى تقال والآراء التي ترتأى ، ولا ان نقيسها بما قاله احد الفلاسفة الاقدمين أو غيره . بل نبحث عنها بالمجرفة والمعول والمرقب والمجهر والمطياف وانابيب الاغلاء والاحماء . والحقائق التي كشف عنها هذا الاسلوب ، بل الصفات التي يقتضيها من ممارسيه قد غيرت نظر الانسان الآخذ بها الى الكون والحياة . فالمكتشفات الفلكية الحديثة ، من عهد غاليليو الى عهدنا مثلا ، ثلت عرش الانسان في الفضاء ، اى انزلت الارض من كونها مركز الكون ، بحسب المذهب البطلميوسي . فصارت سياراً يدور حول شمس هي واحدة من ملايين الشموس في سديم جبار هو احد الشؤم الكثيرة في فضاء ربي ذي الجلال . والمكتشفات البيولجية الحديثة من عهد دارون الى يومنا هذا قوضت اركان عرشه على الارض ، فالانسان ليس سوى احد المخلوقات على سطح الارض وان كان سيدها . وقد كان اسلافنا الاقدمون يرون في الاحداث الطبيعية والامراض والاوبئة ، قصاصاً يستحقه الآثمون . فالصرع والجنون والعمى والزوابع والزلازل والاعاصير والفيضانات وانفجارات البراكين ، الوان من العقاب يوقعها العلي القدير على من فسق عن امره ، ولكننا الآن نبحث عن بواعث الامراض في عوالم المكروبات لافي خفايا الذنوب ، واذا تفشى وباء من الحمى التيفودية او الطاعون فالغالب ان يهرع الناس الى الكيميائيين ليبحثوا في نقاء الماء الذي يشربونه والى البكتريولوجيين لاعداد الاقحة والمصل او الى رجال الصحة لابادة الذباب ومنع الناس من ان يتداولوا الاطعمة الملوثة .

وأما المصدر الثالث فهو التحول الدائم في مذاهب العلم والتنقيح المستمر في اصوله ومبادئه ، والتعديل الذي لاينفك العلماء يدخلونه على حقائقه متفرقة ومجتمعة . فالحقيقة العلمية أبدا بنت البحث المستمر ، وقلما يسري الظن الى عالم، بأن ما يكشفه هو الحقيقة المطلقة . والا فهو ليس بالعالم الصادق العلم . فنحن اذ نرى المذاهب العلمية المتعددة التي اتاحت كل ما تقدم ذكره — وهو بعض يسير من كل عظيم — تتبدل وتتغير وفقاً لما يكشفه البحث ، وتنهار ثم يقوم مكانها ما تقتضيه الزمن والتنسيق العلمي ، فمن العسير علينا بعدئذ ان نتزمت فنقول ان قواعد السلوك الانساني مطلقة لايعتورها تبديل او تغيير ، والغالب ان هذا التبديل والتغيير حادثان فعلا . حتى في اشد المتزمتين ، برغمه او على غير وعي منه .

واذن ، فنحن — حيال العلم — امام قوة تؤثر حتماً تأثيراً آخذاً في الازدياد ازدياداً مطرداً ، في الثقافة بوجهيها الاجتماعي والذاتي ، ولاقبل للناس بابطال هذا التأثير ، لانه متغلغل في نواحي المعاش وفي طرائق التفكير ، فنحن نلمسه فيما ما نأكل ونلبس ونمتطي ، وفيما نحفظ به الصحة ونتقي به المرض ، ونحن نحسه فيما احدثه من تغيير في نظرنا الى كثير من مسائل الكون والحياة ، ونحن نعلم اولادنا حقائقه واساليبه ، وهو تعلم يتسع سنة بعد سنة ، ولا بد من ان يطرد ، وان يشتد تشجيع الآخذين به والمكبين عليه ، اذا شئنا ان نتبوأ المنزلة التي نطمح اليها في المشاركة في بناء الحضارة العالمية الجديدة والثقافة العالمية الجديدة .

ولكن اذا كنا عاجزين عن ابطال هذا التأثير ، وهو عمل غير مرغوب فيه ، فاننا قادرون على توجيهه التوجيه الاجتماعي النافع الطيب ، لأن في طبيعة العلم نفسها ، وفي طبيعة تطوره التاريخي ، وفي طبيعة الاسلوب العلمي واثره في النفس ، معواناً على توجيه الاجتماع البشري الى الخير اذا خلصت النية وصدق العزم .

تدبروا طبيعة العلم نفسه وطبيعة تطوره التاريخي . من المسلم به منذ قرون ان للعلم والبحث العلمي صفة عالمية تعدو فوارق الشعوب والاجناس وحدود الجغرافية والسياسة ، فالحقائق العلمية والنظريات العلمية تنشر او ينبغي ان تنشر — في جميع الاقطار على السواء ، وتنتقد — أو ينبغي ان تنتقد — على اساس واحد ، هو دقتها وقدرتها على تفسير الظاهرات الطبيعية المشاهدة . ولم يقم الا في العهد الاخير من يقول ان هذا الامتحان لحقائق العلم ونظرياته ؛ يستند الى مقياس عنصري او قومي او ديني كما حدث في دولتين كبيرتين في العقدين الاخيرين . ولم تنشأ في قطر ما نزعة ما ، ترمي الى حبس الحقائق والمعلومات عن قطر آخر الا بعد الانتفاع بالطاقة الذرية في عمل القنابل وما لاسرارها من صلة بالسياسة والقدرة الحربية . ولعل اباحة كشف الراديوم من ابلغ الامثلة على فقد « عالمية العلم » في العصر الحديث فقد عرض على مدام كوري وزوجها بمبلغ عظيم من المال لتجعل استخراج الراديوم احتكاراً لشركة معينة ، وكانت احوال معيشتها تغري بالقبول ، فيخرجان من خصاصة كانا متردبين فيها ، وفي وسعها ان يبنيا معملا للبحث ، وان يوفرا اجر مربية لبنتيها ، ولكن مدام كوري قالت : لا ، الراديوم ملك للانسانية ، واحتكارنا اياه مخالف لروح العلم ، ومن ثم جعلت تهب كل قدر يسير تستخرجه منه بشق النفس ، للجامعات والمستشفيات ، ليكون معواناً على البحث او على العلاج . وقد بذل العلماء كل مافي الوسع ، أفراداً وجماعات ؛ لكي يتيحوا لجميع المشتغلين بالعلم ما عندهم من مشاهدات ؛ وكانوا دائماً يرحبون بكل فحص ونقد يوجه الى بحوثهم ؛ بغير نظر الى وطن الفاحص والناقد اوعنصره اودينه .

وقد انشأوا المجلات العلمية وعقدوا المؤتمرات العلمية، وتبادلوا الباحثين والاساتذة، ليوثقوا هذه الصلة، ويوسعوا هذا التعارف. فالرغبة الصادقة في العطاء والأخذ في أوسع معانيها، كانت دائماً، ويجب ان تظل هي السمة الغالبة والسنة المتبعة في العلم الصحيح. وان ماأضافه فحول من طبقة نيوتن وفرادى الانجليزيين، وليبنتز وليبغ الالمانيين، وديكارت وباستور الفرنسيين، ومندلييف وكابتزا الروسيين، وجبز وملكن الاميركيين ومار كوني وفرمي الايطاليين وغيرهم، لم يكن اضافة الى ثقافة بريطانيا، وحسب، أو المانيا وحسب، أو روسيا وحسب، أو فرنسا وحسب، أو اميركا وحسب أو ايطاليا وحسب، بل كان جزءاً أصيلا من بناء هيكل العلم، وكل شعب دخل هذا الهيكل من اقدم العصور ليقدم قربانه بيده، من المصريين والاشوريين والكلدانيين والهنود، الى اليونان والعرب، الى الطليان والانجليز والالمان والفرنسيين والاميركيين واليابانيين والروسيين. فالعلم في الواقع هو الجامعة العالمية الكبرى. او يستطيع ان يكون وينبغي ان يكون.

وإذا كانت جميع الشعوب قد اشتركت في بناء صرحه، فأن منافع العلوم نفسها لاتميز بين الاجناس والعقائد والمذاهب الاجتماعية. فالكينا تشفي المصاب بالبرداء سواء أأبيض كان أم أسود، وهندياً أم افريقياً، وشيوعياً أم محافظاً ومسيحياً أم مسلماً أم وثنياً، والقنبلة الذرية تهلكهم جميعاً ولا تفرق. ويوم اصيب تشرشل بذات الرئة في خلال الحرب العالمية الثانية كان شفاؤه بالاعتماد على مشتقات عقار كشف أولاً في المانيا. فلم يأب هذا العقار ان يشفي تشرشل لأن تشرشل قطب الذين يحاربون المانيا يومئذ.

وقصة هذا العقار نفسه أبلغ مثل على «دولية العلم» فقد كشف في المانيا أولاً في صبغ كيميائي مهد له علماء كثيرون على رأسهم عالم بريطاني؛ هو وليم بركنز ولكن علماء الطب في بريطانيا والولايات المتحدة وغيرهما، بنوا على الكشف الاول واستخرجوا من المادة الاولى أو صنعوا بالتأليف الكيميائي عقاقير جديدة أفعل وانفع. وكل من يحتاج اليها يستطيع استعمالها والافادة منها بغير نظر الى جنس او لون او عقيدة.

ثم خذوا طبيعة الأسلوب العلمي واثره في النفس . من المظاهر الاجتماعية التي تستوقف النظر في الاجتماع الحديث هي ابتعاد الناس عن الدين ، يستبين ذلك في عدم المبالاة بنواهي الدين الادبية ، واقرار بعضهم بالعجز على الوصول الى عقيدة تطمئن اليها النفس ، وجعل الآلة أو الدولة معبوداً في بعض الجماعات وتفسير الكون والحياة تفسيراً مادياً ميكانيكياً ، كما كان الرأي الغالب في اواخر القرن التاسع عشر ، واهمال المثل الروحية واستبدال الشهوات العارضة بها ، واستنباط فلسفات لتحل محل الدين ، وغير ذلك .

ولعل هذا التقلقل في مقام الدين ، ناجم الى حد بعيد عن طول النزاع بين العلم والدين في بلاد الغرب على امور هي من اختصاص الاول دون الثاني . فلما فاز العلم باثباتها على نحو معين ضعف مقام الدين في عقول الذين يظنون خطأ ان ما نقض هو الدين نفسه ، مع ان المنقوض انما هو علم قديم حل محله علم جديد ، كما ينتظر ان يحل علم غد محل علم اليوم . فليثبت علم الهيئة ان الارض ليست مركز الكون ، وليثبت علم الحياة ان الانسان يمت الى الحيوان بصلة الدم وقربى العظام . فهذا الاثبات لا يضير الدين في شيء ، بل ان تسليم رجال الدين بما يثبته العلم ، وهم يجلون في مرآتهم صورة المثل الروحية العليا ، يجعل الأفق الذي تستنزل منه حكمة الانبياء والرسل الكرام والاساس الذي نبني عليه بناء الاخلاق ادنى الى الاقناع والقبول .

وعندي ان التعليم القائم على ترسيخ اصول الاسلوب العلمي وفضائله في ادنى البحث ، يقترب بالناس من صميم الدين ، من المثل الروحي الاعلى . وقد يكون الافلاس الروحي فاشياً في طبقة من الناس لم تمس من ثوب العلم سوى اطرافه وذيوله ، ولكنني فيما اعلم لا أراه فاشياً بين العلماء الكبار المحققين . ألم تروا الى ملكن يقول « ليس ثمة تناقض بين العلم والغرض الاصيل من الدين ، وهو تهذيب الضمير ورفع المثل التي ترنو اليها الانسانية . ولكن الديانات المختلفة أو مذاهبها تحتوي في الغالب على بعض ما هو غير اصيل في الدين ، وهو في الغالب

ايضا موضع النزاع بين اهل الدين واهل العلم — أو هكذا كان . أما أنا فأومن بأن الدين الاصيل ، لا المذاهب ، هو اعظم مايحتاج اليه العالم اليوم » . ولكن هو العالم الطبيعي الذى قاس مقدار الشحنة الكهربائية على الكهرب ، فكان قياسه احد الاركان التي قام عليها المذهب الجديد في بناء المادة . وماكس بلانك صاحب مذهب « المقدار » في علم الطاقة يقول : ان في الحياة حقائق تستطيع ان تستكشفها باساليب العلم بين نظريات وتجارب ، وهناك حقائق اخرى لن تستطيع ان تزنها او ان تقيسها أو ان تحصيها ، ولاسبيل لك اليها سوى سبيل الايمان .

فاذا سلمنا بأن الدين يشمل تربية النفس ورياضتها على فضائل الروح ، وان العلم هو المرجع في نطاق الحقائق المشاهدة التي تخضع للقياس ، واستنباط الصلات بينها وجب ان نسلم ايضاً بأن للعلم حدوداً لايستطيع ان يتعداها . فالعلم لم يكشف العلة الاولى ، ولا الغاية الاخيرة شيء ما ، وليس هذا الكشف في نطاقه . اوقدرته ، فاذا انطوت ، مذاهب الفلسفة ، او مذاهب الدين على آراء تنبع من التأمل أو الايمان ، في هذه الشئون ، فليس للعلم ، ولا في وسعه ان ينكرها لانها خارج نطاقه ، وهذا في ظني هو ما يعنيه بلانك .

وقد قال جايمز جيليان ، رئيس أكبر معهد للعلوم المطبقة في الولايات المتحدة : « يزداد اعتقادي رسوخاً بأن فهم الخير والشر ، وادراك الحكمة في الافراد والجماعات ، هو شيء مستحيل ، بغير شعور عميق صادق بما للحياة من معنى سام نبيل . ومن يدرك أحد هذا الشعور بغير ان يجمع بين فهم الطبيعة وفهم ما تواضع الناس على وصفه بلفظ « الله » عز وجل . العلم يوفر لنا الفهم الاول ، وأما الثاني فلكل امرىء ان يسلك اليه السبيل الذي يؤثره فرداً منفرداً ، أو فرداً في جماعة ، وايا كان السبيل فالشيء الذي لاغنى عنه هو ان ينشيء الانسان لنفسه عن طريق الاختبار الديني ، ايماناً بقوة أكبر واعلى واسمى من قوة الانسان ، وهذا الايمان ليس لازما للانسان الفرد وحسب ، بل للمجتمع السليم وسلامة المجتمع ايضا .

اما صفات المتطبع بالأسلوب العلمي ، فهي الصفات الروحية الخلقية العليا ، او ينبغي أن تكون — الصبر والصدق والانصاف والأخاء والاعتراف بالفضل لذويه . أيفخر الانسان بقوته ويدل بها ؟ فدرس ساعة واحدة من علم الهيئة يقنعه بضعفه فيغمر نفسه الورع والاجلال لمن خلق . ايحتقر قدرته فيميل الى التخاذل والتراخي والقنوط ؟ علمه الكيمياء والطبيعة والطب والهندسة ، يعلم كيف يسيطر الانسان على العناصر فيخلق مواد واشياء لاعهد بها من قبل ، وكيف يخضع الجراثيم ، ويتصرف في الحديد والصلب ، ويغزو اطباق الهواء ويطلق الشموس من قلوب الذرات . ايحسب نفسه سيداً يتيه على اخوانه كبرا ؟ فالطبع العلمي يعلمه ان الانسان وحضارته يزولان ، واما البحث عن الحق فعمل ازلي لاينتهي . اما الانصاف والأخاء والتعاون ، فمن الصفات التي تزين بها كبار العلماء في جميع العصور . واذا كان روح الحق من صميم الدين ؛ فرجال العلم في هذا العصر رجال متدينون حقاً . والاكباب على البحث العلمي المجرد بحثاً عن الحقيقة ، هو وسيلة من وسائل هذا العصر ابتغاء الوصول الى ذلك الصميم .

أنا اعلم ان العلم واقع في هذه الايام تحت غيمة قاتمة ، لأن المخترعات والمستنبطات مرتبطة بهذه المآسي التي تجرها الحرب في ذيولها ، ولكن العلم نفسه لايخدم الحرب ، دون السلام . فالعلم يعطينا الاسمدة بيد والمفرقعات بأخرى ، وكلتا الطائفتين من هذه المواد مركبة من مواد اساسية واحدة تقريباً . انه يجهزنا من ناحية بالاشعة السينية واساليب الجراحة والعقاقير التي تقهر المرض ، ومن ناحية اخرى بالمدافع الرشاشة والغاز الخانق والقنابل الذرية . ولكن ما يزودنا به العلم لاعمال السلام والانشاء ، خليق ان يفوق ما يزودنا به لاعمال الحرب والتدمير — لو عقلنا . واذا كانت المتفجرات تستعمل في الحرب للهدم والقتل ، فانها تستعمل في السلام لحفر الانفاق وشق الترع وفتح المحاجر ، واذا كانت الغازات الحربية تفتك بالناس فغازات اخرى على غرارها تفتك بالحشرات التي تنقل الامراض وتهلك الضرع والزرع . والامثلة على ذلك لاتكاد تحصى . واذا كانت قدرة الانسان المستمدة من العلم قد سبقت حكمته في استعمال تلك

القدرة ، فالعلاج لايكون بكبح القدرة بل بتعزيز الحكمة . وانا ارى ان التثقف بأساليب العلم الصحيح وسيلة من وسائل التربية النافعة ، الخليقة ان تفضي ، بعد طول الممارسة وصدق الولاء للحق والحقيقة ، الى مهيع الحكمة والرشاد .

وللعلم فائدة اخرى لم تستتب بعد . ولكنها دين للعالم معلق في اعناق العلماء . اذ لايخفى ان الديموقراطية في معناها الأمثل ، يجب ان تسعى الى تحقيق الحرية لافراد المجتمع ، علاوة على ضمان الحقوق السياسية ، لانه اذا ادرك افراد المجتمع بعض الاكتفاء الاقتصادي ، كانوا أقل تأثراً بأقوال المهيجين ، واحكم اشترا كا في الشئون العامة ، وارشد رأياً فيها ، واعظم استقلالاً في وزن الامور بموازينها الصحيحة .

وليس ثمة ريب في ان ماافسده العلم الى الحضارة من اسباب العيش يسر العيش على كثيرين من الناس ، ولكنه افضى الى غير قليل من التفاوت والأثرة والتوزيع الجائر والتحكم والفاقة ، ودواء هذه العلل ليس في اخماد شعلة العلم ، بل في زيادتها تأججاً ، لان في وسع العلماء ان يستخرجوا من موارد الطبيعة مايكون فيه الكفاية — بل الرخاء — لجميع الناس ، اي تحرير الناس من ربقة الفاقة والعوز ، على ان تصدق النية ويحسن التنظيم ويتسع مجال العمل . فعلى العلم والسياسة ان يعملا معاً . على العلم ان يرشد الساسة والحكام الى توفير الاحوال التي ترفع من كرامة الانسان ، وعلى الساسة ان يأخذوا من العلم والعلماء لكي يضمنوا بوسائلهم واساليبهم ان ثماره لاتضيع ولايساء استعمالها . نعم ان السياسة في اثناء الحرب تخدم الخطة الحربية والعلم يخدمها معا ، ولكن الرجاء معقود على ان تكون السياسة في ابان السلم خادمة العلم في سبيل الخير العام ، فاكفاء مطالب الحياة حق من حقوق الانسان ، كالحقوق والحريات السياسية ، لان الجوع والتعطل عن العمل يسخران المرء كما يسخره السيف والطغيان . فالقضاء عليها ينفخ معنى وحياة في ذلك الحق الانساني الاصيل الذي صدر به بيان حقوق الانسان : (حق الحياة ونشدان السعادة) .

٦

واخيراً ما موقفنا نحن في الشرق العربي من كل هذا ؟وماذ نستطيعه من مشاركة في انشاء هـذه الثقافة العالميـة الـتي لامفر من ان يكون العلم احد اركانهـا ؟

لا أكاد التفت في الحين بعد الحين الى نهضة العلم في البلاد العربية ، حتى يحملني التأمل فيها ، على اجنحة لاتزال تطوي القرون الماضيـة الى ان تستقر بي في بغداد ، عند السنة الثلاثين بعد المئة الثامنة من التاريخ الميلادى ، فاذا أنا امـام «بيت الحـكمة » الذي انشأه الخليفة المأمون ، فجعله داراً للكتب ، ومجمعاً للعلمـاء ومكتباً للترجمـة ، فأقف خاشعاً ، فهـذا البيت ، كان منبت حركة من الحركات الفاصلة في تاريخ الفكر الانساني ، يتربع على مستوى رفيع واحد ، مع «اكاديمية» افلاطون و « ميوزيم » الاسكندرية . ومعاهد اوروبا في عصر الاحياء ، وعهـد الاستنارة ، ثم الجامعات العظيمة في العصر الحديث .

وليس «بيت الحـكمة » بحاجة الى شهادة تزكي منزلته في تاريخ الفكر العالمي ، ولـكنني وقعت عرضا على شهادة لروبرت بريفولت صاحب كتاب « نشأة الانسانية » احب ان اوردها فقد افرد المؤلف «لبيت الحـكمة» فصلا خاصاً ،واتخذ من اسم البيت رمزاً لما اسداه العرب الى الثقافة الانسانية من يدخالدة على الدهر ، فأثنى ولم يضن ، ولـكنه ثناء العالم المتمكن المنصف ، وقـول الـكاتب الذي يزن الـكلام بموازينه الدقيقة وقد مهد له بكلام طويل معقد ، عن عقم الحضارة البزنطية وجمودها في عهدها الاخير ، برغم ماذاع عن مغانيها ومباهيها ، ثم قال ان الشعلة التي سرت الى الحضارة الاوربية ، المنبعثة ، فأضاءت لها مجاهل الطريق الوعر ، لم تسر أول ماسرت من الجمر الخامد تحت اكوام الرماد . المتخلف عن حضارة اليونان والرومان ، ولا من غزاة الشمال ، بل من العرب .

والحق يقال ، ان ما ابدعه العرب في ميدان العلوم قد أتى الزمن على جانب كبير منه وقل ان تجد في ميدان العلم شيئاً دائماً ، ثابتاً على الدهر والحقيقة العلمية ، هي كما اسلفت أبدا بنت البحث المستمر والتنقيح الذي لايفتر ، ومذاهب العلم لاتزال تتبدل وتتغير وفقا لما يكشفه البحث ،وتنهار ويقوم مقامها ما يقتضيه الزمن والتنسيق العلمي . وقد تكون دراسة ماابدعه العرب او خلفوه للقرون التالية تعريفا في التاريخ لغير العرب ، او بحثا عن الاصول ، حتى يرد الفضل الى ذويه ، ولكنه في منزلة الركن من صرح حياتنا الجديدة ، وهو عنصر لاغنى عنه في اعدادنا للاضطلاع بالتبعات الجسام التي لابد ان تقع علينا ، ونحن في غمار هذا البعث ، اذا شئنا ألا تخلف عن منانا المحتشدة لتنبثق . وقد يكون ابن الهيثم أصاب أو أخطأ في بعض آرائه في الضوء وقد تكون سجف النسيان قد اسدلت على بعض آرائه الصائبة ، ولكن ذلك لايهمني اليوم بقدر ما يهمني ان ابن الهيثم قد ابدع في علم البصريات منذ الف سنة من الزمان اوتزيد ، وان الحضارة الحديثة قد اخذت عنه ماابدع ، فكان ما اعطى وما أخذ عنه ، لبنة في بناء صرح العلوم الحديثة ، وقد تكون مئات المؤلفات والرسائل التي ترجمها والفها رجال « بيت الحكمة» ،او غيرهم ، ممن سبق عهدها الزاهر ، او تبعه شيئا ، لايرجع اليه الآن لمعرفة الرأي الاخير في هذه المسألة العلمية او تلك ، بيد ان ذلك في نظري يأتي في المنزلة التالية ، للمغزى التاريخي الأول والاهم المنتزع من ذكره « بيت الحكمة» فهناك جمع الخلفاء طائفة من الرجال ، بغير تمييز بين عنصر او مذهب، واطلقوا لهم حرية البحث ، وامدوهم بالمال ، وغمروهم بالرعاية ، وشجعوهم بالاهتمام بما يفعلون وبتقديمهم على غيرهم من الناس ، فانطلقوا يبحثون عن كتب العلم القديم ينقلونها الى العربية ، وطوفوا في اقطار الشرق الاوسط جميعاً يجمعون الحشائش ويصفونها ، والفوا انفس الكتب في صورة الارض وطبائعها ومسالكها وممالكها واردوا مسائل الحساب والجبر والفلك والكيمياء والطب وابدعوا فيها ، فوضعوا فيها اشهر المؤلفات ، ومنها ماظل كتبا تدرس في الجامعات الاوربية الى قبل قرنين من الزمان ، حتى ليصح ان يقال : انهم ظلوا زمنا طويلا معلمي الدنيا . قال بريفولت في كتابه الذي اشرت اليه : «ان الذي نطلق عليه اسم «العلم»

قام في اوربا نتيجة لروح جديدة في البحث ، واساليب جديدة في الاستطلاع ، وطريقة جديدة في التجريب والاستقراء والقياس — هذه الروح وهذه الاساليب، مردها في اوربا الى العرب .

فالعرب حفظوا من الضياع ، خلاصة جيدة من الحضارات القديمة التي اتصلوا بها ، واضافوا اليها من مبتكرات عقولهم ، ثم نفحوا الحياة الاوربية الجديدة في مستهل عصر الاحياء بهذا التراث المجيد . واذا كنا حين نقرأ العلوم الحديثة لانجد — أو قل أن نجد — كشفا من الكشوف الخطيرة الأساسية يعزى الى العرب ، فيجب ألا ننسى ، أن العلم مدين للثقافة العربية ، بأكثر من كشف خطير ، انه مدين لها بسر من اسرار حياته .

ولست اذكر ماكان ، لاني احب ان أعيش في الماضي ، ولا لأتغنى به وحسب ، منصرفاً عن متاعب يومنا الحاضر وتحدي غدنا المقبل ، ولكنني اذكره لانني احب أن أرفع عينيّ الى العلا ، وان اذكي في نفسي ونفس كل من يريد ، ايماناً بأن ماصنعه السلف منذ أحد عشر قرناً ، من تعهد «خميرة » الفكر العالمي ، نستطيع ان نصنعه نحن ، اذا صحت العزيمة ، وحسن الارشاد . وقد كان الرجال الذين صنعوه ، قليلة وسائلهم ، ولكنهم كانوا ذوي مضاء وصبر وتوق الى استشفاف المجهول ، فلم يثنهم ، أنهم لايملكون المجهر الذي يكبر الدقائق؛ ولا المرقب الذي يقرب الغائر البعيد ، ولا المطياف الذي نحلل به الضوء ، ولا الغرفة الغائمة التي نصور بها مسير اجزاء الذرات ، ولا الضوء الكهربائي الذي يجعل اناء الليل موصولاً باطراف النهار ، فيضاعف ساعات العمل المجدي لمن يشاء ، ولا المكتبات الزاخرة بالمراجع والفهارس ، ولا الكواشف التي تكشف طلائع الامراض ، وتفرق الجراثيم بعضها عن بعض، ومع ذلك خلّفوا للناس في شتى العلوم تراثاً ضخماً فاخراً ، لايزال حتى يومنا هذا ، يبهر العلماء كلما كشفوا عن ناحية من نواحيه .

انا اعلم ان العصر عصر سرعة ، وان الزحام على العمل والعيش زحام مستحر ؛ وأن الزمن قلما يتسع لكل منا ان يدرس دراسة تحر ، ذلك التراث الذي خلفه العرب أو غيرهم من الامم ذوات الحضارات التي نشأنا في احضانها ، ثم ان يضيف الى ذلك كله مايقتضيه العصر وتقتضيه الحياة من حذق لأسباب العيش ووسائل الكفاح ، ولكنني اعلم كذلك ان حذق هذه الوسائل ، سواء اعقلية كانت أم مادية ، لايجديان سوى القليل القليل ، في خلق امة تحسن القدرة في ذات نفسها ، وتطمح الى ان تنشيء وأن تبدع ، ولاتقنع بأن تبقى في حياة العلم ـ والفكر عامة ـ عالة على موائد الغير . فالمصريون والفينيقيون والعرب وغيرهم ، شقوا الضباب الذي كان يغشي آفاق المعرفة في فجر الفكر الانساني ، او وضعوا بأيديهم أركان هيكل المعرفة وعمده ، أفيقنعنا ان ندخل ابوابه في الحين بعدالحين لنتفرج على الآيات التي نقشت على جدرانه ؟

كل حضارة وكل نهضة وكل تحول أصيل في حياة الشعوب يرتد الى أصلين من اصول الحياة . أما الأول فهو الفكر الذي يصور الغايات التي تحدي اليها الركائب ، ومنه تنبع القوة المحركة ، واليه ترجع الآراء الفلسفية والعلمية والاجتماعية التي تمهد طرقاً كانت وعرة من قبل أو كانت غير مطروقة . فمذاهب العلم الحديث في بناء المادة وطبيعة الطاقة ، والتطور العضوي والآراء الاجتماعية الحديثة في الاشتراكية ونظم السياسة والاقتصاد والاجتماع ، هي التي افرغت عالمنا الحديث في قالبه المعهود . وهي جميعاً صدرت أولاً من الذهن الانساني فكر كالشهاب ، ثم لم تلبس ان تغلغلت في حياة الناس كل يوم . وأما الثاني فهو البيئة الاقتصادية والاجتماعية التي يعيش فيها الناس ـ فكل مايحدث في هذه البيئة تغييراً اصيلا فيها ، من اساليب الصناعة والزراعة والحذق في استغلال موارد الطبيعة ، يغير الاحوال التي يعيش فيها الناس ، فيفضي بعد زمن طويل أو قصير الى تغيير في آرائهم وافكارهم ونظرتهم الى الكون والحياة .

والعاملان متفاعلان ، فبحوث مكسويل الرياضية في الامواج الخفية

التي تملأ الفضاء افضت بعد زمن الى جميع عجائب العصر اللاسلكي وشيوع الراديو أخذ ينشر المعرفة ويفضي الى تعريف الناس بعضهم ببعض ، ويفسح المجال لطغيان الدعاية ، خيراً كانت أو شراً . وارتقاء الصناعة الذي نشأ عن التقدم الحديث في علوم الطبيعة أفضى الى كثير من الرخاء وارتفاع مستوى العيش وسوء التوزيع ، فأفضى بدوره الى نظرية التفسير الاقتصادي للتاريخ والى المذاهب الاشتراكية المعتدلة والمتطرفة . وقيام بعض الدول وطائفة من الحكومات على قواعد تلك المذاهب .

والامة العربية اليوم تقف على حد من الزمن ، يتحداها فيه ماضيها المجيد، ومستقبلها الغامض . فان لم تجعل العلم المنشىء بعض عدتها في الاستجابة لهذا التحدي ، فأغلب الظن انها تبقى متخلفة عن ركب الزمن مستضعفة عند المدو والصديق كليهما ، و « بيت الحكمة » يوحي الينا اليوم ان هذين الاصلين من اصول الحياة ، متغلغلان في تاريخنا واذن فيها رهن مشيئتنا ، واننا نستطيع بالاستناد اليها ، ان ننمي مواردنا الانسانية والطبيعية أتم انماء وافضله ، وان الايمان بأننا نستطيع ، ينبغي ان يكون حجر الزاوية في منهج كل معهد من التعليم ، وكل وسيلة من وسائل التربية العامة .

واذا صرفنا النظر هنيهة ، عن المعاني الدينية العالية ، التي اشرقت على ارجاء العالم ، من هذه الارض ، فليس ثمة ريب في نظري ان نصيب الحضارة العربية في بنيان الحضارة العالمية ، يلخص في ثلاثة الفاظ ومعنيين ، اما الالفاظ فهي « بيت الحكمة » و « الشورى » اما المعنيان فيها على حد التعبير الحديث ، العلم والديمقراطية في اعمق معانيها وأوسعها . وقد جردت من لفظي « بيت الحكمة » فيما تقدم رمزاً للعقل الذي خلبته اسرار الكون ، وأومأت اليه ودائع الطبيعة ، فانطلق باحثاً منقبا حراً من كل قيد يثقله ، سوى قيد الشوق الى الحقيقة واستطلاع المجهول ، وقيد التفكير السليم . واحب ان اجرد من لفظ « الشورى » رمزاً لجوهر النظام الديمقراطي في الحياة ، من حيث هو أسلوب للحكم ، وقانون

للاخلاق الفردية والاجتماعية ، وهو اعظم . والعلم لايؤتي ثمره النافع الا اذا اقترنت قدرة العالم بشعور التبعة الاجتماعية . والتبعة الاجتماعية لاتنمو افضل نمو وأجداه الا في جماعة اخذت بأسباب « الشوري » ، وادرك كل ابن من ابنائها ان عليه « زكاة » يؤديها للمجتمع ، وان « الرجل حقا هو حارس اخيه » .

ان الديمقراطية ، من حيث هي فلسفة اجتماعية لامن حيث هي نظام سياسي للحكم وحسب ، تواجه اعظم تحد وجه اليها ، وهي تواجه كذلك اعظم فرصة متاحة لها لتبني اجتماعا بشريا اركانه : أن الحكم الشعبي ممكن قيامه بغير طغيان ، وان الحرية مثل عال بعيد ولكن الدنو منه مستطاع ، وان رفع مستوى الثقافة العامة رفعا مطرداً هو في المتناول ، وان كان عملا شاقا ، وان في قدرة الناس ان يقربوا منها يطل الطريق ويتوعر ، من العدل الاجتماعي ومن التحرر من ربقة الفاقة والعوز ، وان اتاحة الحياة الوافرة لكل فرد من افراد المجتمع واجب واقع على كاهل كل انسان ، ولاسيما في عصر وفر له العلم جميع الوسائل التي تتيح للناس هذه الحياة .

وفي سبيل تحقيق هذه الاغراض ، لابد من كيمياء اجتماعية جديدة ، عنصراها الديمقراطية والعلم ، وناموسها الاساسي ان اتحاد العنصرين ينشيء مجتمعاً تزكو فيه الحرية ويرف عليه السلام ، ويعم فيه الرخاء . واذا شئنا ان نرتفع الى مستوى ما يحتشد في نفوسنا من منى ، لم يكن لنا بد من ان نصل حاضرنا بماضينا نستلهمه ونستوحيه ، ففيه جميع الاصول التي يجب ان يبني بها وعليها العصر الجديد ، هنا وفي ارجاء الارض . فالفضائل الديمقراطية التي تجلت في المسيحية والاسلام ، يجب ان تعود الى مكانها العالي ـ في حياتنا واخلاقنا ونظم حكمنا . والابداع العلمي في عصور الاسلام الزاهرة ، لم يكن عاصفة في فنجان . انه يرتد الى صفات عقلية أصيلة ربما علاها الصدأ ، ولكن الصدأ يزول بالصقل . ثم ينبغي أن نصل حاضرنا بمستقبلنا ، بترويض النفوس واعداد العقول للمشاركة في هذا البناء ، على هذه الاركان .

٧

ليس في وسعنا اليوم ، ان نرجع القهقرى الى العصر الذي سبق العصر الذري ، فقد صارت الطاقة الذرية حقيقة لاريب فيها ، وبتنا نعلم أن عالماً تمزقه اسباب الصراع ، لهو عالم مقضي فيه بالهلاك . فليس امام الناس سوى طريق واحد يسيرون عليه ، طريق السعي الصادق لانشاء عالم افضل من العالم الذي شيعناه يوم ٢ كانون الثاني ١٩٤٢ وعلى ان القوة التي ينبغي ان تتضافر على انشاء هذا العالم المرموق كثيرة ، فانني ارى ان العلم ليس اقلها شأناً ولا اضعفها أثراً . فالعلم لايقتصر على مايكشفه من اسوار الكون ، ولا على مايخترعه رجاله من اسباب لتيسير الحياة او تدميرها ، بل هو في صميمه نظرة الى الكون والحياة يجتمع فيها التطلع الى المجهول ، والجرأة في الخروج على المألوف ، والتعاون الحق بين المشتغلين بالعلم ، والرغبة الصادقة في اعلاء كلمة الحق والخير . فرسالة العلم هي رسالة النفس المثقفة ، ورسالة العالم المستمتع بالوفر والرخاء في وقت واحد . وكلاهما خير مافتئت ركائب التاريخ تحدى اليه منذ كان البشر .

المحاضرة الثانية

اثر الحركات النسائية في نهضة الشرق العربي

الدكتورة درية شفيق

= القيت بتاريخ ١٣ آذار سنة ١٩٥٣ =

سيداتي آنساتي سادتي

احب قبل ان ابدأ محاضرتي ان اشكركم كل الشكر على هذه الحفاوة التي لقيتها في هذه المدينة الكريمة المضيافة .

فقدتعرفت في هذه الفترة القصيرة على سيدات كريمات ادخلن الغبطة الى نفسي وجعلنني أومن ايماناً مطلقاً ان قضية المرأة واصلة حتما الى اهدافها .

كما اريد ان اخص بالشكر صديقنا وصديق مصر العزيز الاستاذ سامي الكيالي الذي هيأ لي هذه المناسبة السعيدة والذي مافتئ يعمل منذ سنوات على توثيق هذه الصلات بين مصر وسوريا . فقدعرفناه اديباً مجدداً يعمل في حقل التجديد الفكري بنشاط كبير وصبر عجيب . واود ان اخصه بتهنئة خالصة على نجاح مشروعاته الادبية التي لها صداها العميق لا في مصر فحسب بل في كل انحاء الشرق العربي .

سادتي سيداتي

يسرني ان اخف اليكم وكلي غبطة بهذه الزيارة السعيدة المواتية ، ولست في ذلك سباقة الى الخير فقد سبقتمونا في الود وسعدت بلادنا منذ عهد قريب

بزيارة العقيد الشيشكلي فكان لزيارته اثر عميق في التقريب بين البلدين وتوحيد سياستها وقد كان لتلك الزيارة خطرها في بلادنا واصبحنا بها شعبا واحدا وسياسة واحدة يمثلها الزعيمان الكبيران الشيشكلي ومحمد نجيب .

والقصد من تلك الزيارة وامثالها اي زيارة الرجال للرجال هو خلق نوع من التكتل الذي يؤكد سلطان البلاد العربية ويمكن لحريتها واستقلالها .

فاذا تبادلنا الزيارة نحن النساء فانما نتأثر خطى الرجال في خلق نوع من التكتل بيننا ايضاً .

اذ اننا جديرات بهذا التكتل لان ظروف النساء في كل من البلدين واحدة فسنستكمل بأذن الله نحن النساء مقومات حياتنا بالحصول على جميع حقوقنا كاملة غير منقوصة ولاشك ان الرجال سيرحبون بهذه الرحلات التي يقوم بها النساء لمعاونة الرجال على تحقيق الاهداف التي يسعون اليها هم انفسهم ولمساعدتهم حين يجد الجد في جعل الشعوب العربية صفا واحداً رجالاً ونساء ، وهذا غرض شريف يحسن ان نعمل له في هذه الايام التي تيقظ فيها الشرق العربي .

سيداتي وسادتي

ان حديثنا اليوم يدور حول « اثر الحركات النسائية في نهضة الشرق العربي » فأثر هذه الحركات في نهضة بلادنا الشقيقة ماهو الا اثر كل الحركات المماثلة في العالم المتحضر واذا القينا نظرة على تطور بلاد العالم وتقدمها لرأينا ماسجله التاريخ من ان نهضة كل بلد تمشي دائماً ونهضة النساء فيها . اذ ان مقياس مدنية الامم ماهو الامدى ماوصلت اليه المرأة في كل منها . فاذا نهضت المرأة نهضت الامة . واذا تخلفت النساء عن الركب تقهقرت البلاد واندثرت الحياة فيها .

ايها السادة

لقد اصبحت شعوب الشرق العربي في مفترق الطرق ، واصبح علينا نحن

العرب واجب التعرف الى مالنا من حقوق وماعلينا من التزامات ، وهذه الحقوق وهذه الالتزامات يستوي فيها الرجال والنساء على السواء ، فاني لاافرق بين وطنية الرجل ووطنية المرأة ، لا افرق بين حركة وطنية وحركة نسائية ، كلاهما كل لايتجزأ ، كلاهما قضية واحدة ، قضية بلادنا الشقيقة ، فاذا نادى منادي الوطن لافرق بين رجل وامرأة ، الكل صف واحد ، والكل قلب واحد ، متساوين في اداء رسالتنا نحو بلادنا .

انه لايجوز ان نتحدث عن حركة وطنية في بلد ما ونتجاهل ماتقوم به النساء من اعمال في هذا البلد ، وخاصة انه عندما تتاح للمرأة الفرصة وعندما يمهد لها الطريق تصنع المعجزات وتقوم باسمى الرسالات ، وتوحيد الحركات النسائية والحركات الوطنية امر طبيعي ، كيف تعمل يد واحدة والأخرى معطلة ، وهل تستكمل البلاد كل مقوماتها وليس لها الا رئة واحدة ؟ وهل من الجائز ان يتقدم شعب ونصفه اشل ؟ لقد اصبح دخول المرأة في الحياة العامة ومساهمتها مساهمة فعالة في الحياة العامة امراً ضرورياً لايختلف فيه اثنان . لانه حتى في كثير من بلاد الشرق العربي التي لم تسمح لها ظروفها منح المرأة حقوقها كاملة غير منقوصة ، حتى في تلك البلاد برزت المرأة في الميدان الثقافي والاجتماعي وبرهنت على جدارتها وقامت بخوارق الاعمال متفانية في اداء واجبها ، ولكن لابد ان يعرف انه لايجوز مطلقا ان تطالب المرأة بالالتزامات وتحرم الحقوق ، فتعطي دائما ولا تأخذ ابداً ، يجب ان يكون شعارنا « حقوق متساوية لالتزامات متساوية » ، وعندما اقول شعارنا اعني نحن نساء العرب ، لان قضيتنا واحدة ومطالبنا واحدة وظروفنا واحدة ، ومن المحال ان تقوم المرأة برسالتها كاملة الا اذا اعطيت حقوقها وردت اليها كرامتها فيفسح لها الطريق وتتمكن من المساهمة في بناء وطن صالح . لقد كافحت المرأة العربية كفاحاً طويلا مريراً في سبيل بلادها اولاً وفي سبيل وجودها ثانيا واثبتت في جميع مراحل الحياة انها امرأة جديرة بالاحترام قمينة بالتقدير والاعجاب ، وان المرأة العربية ليحفظ التاريخ لها في صفحاته

سيرة عطرة بزت جميع سير النساء في العالمين ، فكانت لها رسالة عظيمة منذعرف الاسلام قدرها وهيأ لها مقومات حياتها بعد ان كان وأدها من طبائع الاشياء ، واستمرت تؤدي رسالتها جيلا بعد جيل .

ايها السادة

يسرني ان احدثكم عن المرأة المصرية ، واذ اتحدث عن المرأة المصرية فاني اتحدث عن اخواتي السوريات واللبنانيات والعراقيات لان ظروفنا واحدة وجميعنا نعمل نحو هدف واحد وهو النهوض بمستوى المرأة ومتى نهضت المرأة وتحررت فقد نهض الوطن .

كانت مصر في المائة عام الاخيرة تكاد تكون منفصلة عن بقية البلاد العربية وان كانت متجاوبة معها في الروح والمزاج . وكانت المرأة فيها لامكان لها في الحياة العامة . هذا هو الحال في العهد الماضي الذي الزم المرأة بالواجبات وحرمها الحقوق ، والآن وقد جاء فجر جديد على يد قائدنا العظيم اللواء الرئيس محمد نجيب منقذ مصر ومعاونيه المخلصين الذين بذلوا جهودهم الجبارة في سبيل انقاذنا من وهدة الفساد التي تردينا فيها ازماناً طويلة ، فالرجل العظيم الذي حرر البلاد من ظلمات العصر البائد سيحرر حتما المرأة المصرية من قيود الماضي . سيعطي لها باذن الله حقوقها كاملة غير منقوصة ، وهذا ليس بكثير عليها فلقد جعلت لنفسها رسالة من اسمى الرسالات . لقد استطاعت بجلدها وشجاعتها ان تتخلص على مر العصور من الاغلال التي وضعت فيها ازماناً طويلة ومع ذلك لم تخرج قط - وهي تحطم اغلالها - عن تعاليم الدين السمح الكريم بل انها كانت المرأة العاملة الواعية التي اخذت من اسس الدين وسائل نهضتها الجديدة .

وليس هناك ما يدهشكم حين تعلمون ان الحركة النسائية التي تقودها بنت النيل اليوم تشغل بال العالم المتحضر جميعاً ، فنحن في مصر في شبه معركة دائمة متصلة لتحقيق مطالب المرأة المصرية الحقة . والعقبات التي تقابلنا لم تقابلها امرأة

اخرى في العالم . فقد نالت المرأة حقوقها عندهم ولم يكن لها مثل هذه الكثرة من الخصوم ، ولم تكن ترسف في مثل مارسفت فيه من اغلال . ويرجع هذا الى اننا ورثنا من العهود القديمة الى جانب الاشياء الجميلة تقاليد عاتية يصعب عليها التخلص من آثارها بسهولة او برفق ، ويحاول خصومنا ان يخلطوا دائماً بين التقاليد البالية والدين الكريم ، والدين ـ والله شهيد برىء من كل ذلك الذي يلصقونه به زوراً وبهتانا .

فلا عجب اذن ان يكون حصول المرأة المصرية على اي حق من حقوقها مشكلة او معركة لايمكن ان يتم فيها نصر من غير كفاح عنيف . وانكم لترون معركة المرأة المصرية قد طالت واستطالت اكثر من نصف قرن ، فمنذ اواخر القرن الماضي والمعركة قائمة حول حقوق المرأة . ولحسن حظها انها في جميع المعارك المتتالية وجدت انصاراً من الرجال وقفوا الى جانبها وتحملوا ماتحملوا من عنت ونفور . وفي مقدمة هؤلاء كان المصلح الاجتماعي قاسم امين الذي وظف قلمه في الصحف والكتب لتحقيق الهدف الاسمى للتسوية بين المرأة والرجل في كثير من الحقوق والواجبات كما وقف الى جانبها الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فقد فسر الدين الاسلامي تفسيراً حراً ياحبذا لو نهجوا اليوم نهجه ، فقد كان للاستاذ الامام رأي عظيم في تعدد الزوجات والطلاق وقد طالب في هذا التفسير بما نطالب به اليوم وبما نرجو ان يتم قريبا ان شاء الله على يد مصلحي هذا العهد الذين قاموا بتنفيذ برامج الاصلاح في كل ناحية من نواحي المجتمع المصري وخاصة ان نواة الاصلاح الاولى هي دفع عجلة التقدم الى الامام وعدم التقهقر الى الوراء .

واحب ان الفت النظر في حديثي الى حضراتكم الى ان الاصلاح في مصر بخصوص المرأة جاء من المرأة نفسها وقام على كواهلها ولم يأت بجهود غيرها ، ولعلكم تذكرون جهود الزعيمة المغفور لها هدى شعراوي وما قامت به من اعمال فذة في سبيل الحركة القومية والنسائية .

وهكذا كانت كل خطوة تخطوها النساء في مصر تعتبر معركة حاسمة لاتخرج منها الا بعد كفاح مرير وتضحيات غالية، واخذ المسئولون باقوال قاسم امين في شئون التعليم فالتحقت البنت بكل مدرسة ارادتها وانتهى الأمر بدخولها الجامعة وساعدها على هذا النهوض طائفة من المهتمين بالشئون العامة وخاصة بشئون التعليم وعلى رأسهم الدكتور طه حسين والاستاذ لطفي السيد .

وعلينا نحن النساء ان نذكر ماتحملته هاتان الشخصيتان الفذتان اللتان قلما يجود الزمان بمثلها وعلينا ان نشكرهما على ماتحملا من صعوبات في سبيل قضيتنا وانني لنا هذا مهما وظفنا اقلامنا فلن نعطيها حقها .

وجاءت النتيجة الحتمية لذلك كله وهي اشتغال المرأة في الوظائف والاعمال العامة ومن حسن الطالع ان الفتاة المتعلمة قد برهنت على كفايتها وجدارتها بل برهنت على تفوقها العظيم .

وبالرغم من جدارتها واستحقاقها فلم تفتح امامها الابواب على مصاريعها بل اغلقت في كثير من جوانب الحياة فحرمت وظائف القضاء وبعض المناصب الاخرى ومعنى ذلك ان بعض الوظائف العامة لم يكن للمرأة فيها صوت ، وهذا عمل لاتجيزه امة متحضرة متطلعة الى الحياة والوجود . امة برهنت بثورتها الجامحة التي قام بها جيشنا الباسل انها لاترضى الذل والهوان وانها عاهدت الله على التخلص من نير كل انواع الاستعباد .

سيداتي سادتي

حين احدثكم عن المرأة المتعلمة في مصر فانما اتحدث عن قلة ليس لها بالطبع وحدها المكان الاول في تكوين الشعب نفسه واعلاء شأنه فهناك الى جانب هذه السيدة المتعلمة الفلاحة والعاملة ، وهي المرأة التي بنت مكانة الامة بين الامم ورفعت من شأنها بين العالمين ، وقد ساهمت باكثر من النصف في هذا

البنـاء الشامخ على ضفتي النيل ، سواء كان ذلك في الريف او في المدن ، فالمرأة الفلاحة المكافحة هي التي تنجب لنا الفلاح نفسه واولاده وتقوم على خدمتهم وترعى شئون البيت والحقل ، وهي لاتقتصر على هذا الجهد من الكفاح والكدح بل تقوم الى جانب ذلك باعمال منزلها وتربية ابنائها الى غير ذلك من شئون لها المكان الاول في حياة الشعب المصري .

هذه المرأة لم تكن قط محجبة بل هي اشد نساء العالم اختلاطاً بالرجل منذ عدة آلاف من السنين ، وهي اكثر نساء العالم فهما لمسئوليات الحياة ، ومعنى هذا في رأي المنصفين ان المجتمع في مصر بني على اكتاف سيدات سافرات منذ اقدم عصور التاريخ .

ولا يقف نشاط المرأة المصرية المعاصرة عند هذا الحد بل هي تقوم بواجد اطفالها نتيجة نشاطها الملحوظ في المصانع والحقول سواء بقي زوجها الى جانبها او انصرف عنها الى زوجة اخرى ، وهي اليوم تكافح لاصلاح المجتمع بطلب فرض القوانين التي تحول دون اهمال الزوجة وتعدد الزوجات ، وبذلك تستقيم حياة الاسرة استقامة تبني مجد الوطن البناء الشامخ الذي قامت من اجله ثورتنا المباركة .

واني لاذكر لكم ان الاضطراب الاجتماعي المترتب على اهمال حقوق المرأة وقد بينت لكم طرفا منه ـ وهو الذي دفعني الى تأسيس اتحاد بنت النيل للمطالبة بحقوق المرأة كاملة غير منقوصة حتى لاتستمر المرأة المصرية تعطي دائماً ولا تأخذ ابداً ، ويبدو ان المرأة اكثر من الرجل سخاء منذ القديم ، فقد سألت ام عمارة الرسول العظيم قائلة « ارى كل شيء للرجال وما ارى النساء يذكرن بشيء » فعطف الله عليها وانزل قوله الحكيم « ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ....» الآية ، لقد تأسس اتحادنا في مصر ورائدنا اقناع الناس بهذ القول الكريم وانرد الحق الى اصحابه ولنعرض قضيـة

المرأة المهضومة الحق على الضمير العام لتأخذ المرأة بقدر ما تعطي مجتمعها من خير وافضال .

وقد جندت نخبة من سيدات الوطن للقضاء على كل مخلفات الماضي التي لاتتلاءم مع عرف او دين لنهض ببلادنا ومجتمعنا ، فقد ثبت عجز رجال الماضي عن انصاف المرأة المصرية بالرغم من وجود البرلمانات المتعاقبة والمشروعات الطيبة التي نامت في ادراج تلك البرلمانات ، وثبت ايضاً انه لن تقوم للمرأة قائمة الا اذا تولت بنفسها قضاياها واخذت على عاتقها امورها ، ولاشك عندي اليوم ان موجة التحرير التي استغرقت حياة المصريين اليوم تفرض علينا ان نتشبث بمطالبنا لان المرأة المصرية نصف الامة ونهضة الامة تستوجب نهضة هذا النصف المغلوب على امره وعندي من اليقين مايؤكد ان هذا النصف سيتحرر كما تحرر الشعب كله في اقرب وقت بأذن الله . فانى لافهم ان نطالب باداء الواجب ونحرم الحقوق ، لذلك فان من اهداف بنت النيل الاولى ان يكون شعارنا « حقوق متساوية لواجبات متساوية » .

اما عن الواجبات التي نؤديها في مصر فيسرني ان اجملها هنا ، وهي واجبات الغرض منها السعي لرفع مستوى المرأة المصرية لترتفع نهضة البلاد ارتفاعاً يسمو بها بين الامم والشعوب .

لقد قمنا بتأسيس اكثر من خمسين مركزاً لمكافحة الامية بين النساء اللائي فاتهن سن التعليم ، ومكافحة الامية لاتعني المعنى الدارج المفهوم بل اننا قصدنا بمكافحة الامية مكافحة الامية الاجتماعية والصحية ، فالى جانب القراءة والكتابة والحساب تدرس ايضاً المعلومات العامة الصحية والاجتماعية ، وقد استطعنا ان نخرج من مراكزنا حوال ١٥٠٠ سيدة كل سنة سواء اكان ذلك في الاقاليم او القاهرة .

وقد اسفرت تجارب بنت النيل في مكافحة الامية عن نتائج سارة منذ

ثبت ان ستة اشهر تكفي لتعليم المرأة بحيث تفهم مالها وما عليها ، وانه ليسرني ان اقول ان مجلة بنت النيل تقوم حالياً بحملة واسعة النطاق لمكافحة الامية بين افراد الشعب كله ، فتصبح الأم المصرية عموما جديرة برسالتها السامية في مقدرات الوطن العزيز ، واعني بالأم الأم المثقفة التي تزن الامور بميزان العقل والتبصر بميزان العاطفة اذا ترملت او اصابها الزمن بشر او ادبرت عنها الدنيا ... الأم التي لاتعرف الخوف ولا ترضى الذل والهوان ، الأم التي تعرف لنفسها مخرجاً اذا نزلت بها نازلة او ضاق بها العيش ... الأم المكافحة التي تضرب لبنيها الامثال العالية وتقدم بخدماتها التضحيات الغاليات ... الأم التي تؤمن بالاسرة وتؤكد روابطها وتدعم اركانها ... الأم التي جعل الله سبحانه وتعالى الجنة تحت اقدامها ... الأم التي قال عنها النبي عليه السلام «والمرأة راعية في بيتها ومسئولة عن رعيتها» هذه هي الأم التي يعدها اليوم اتحاد بنت النيل عن طريق مكافحة الامية الذهنية.

وكذلك قمنا بتأسيس مكتب العمل للشباب الجامعي وذلك لتوظيفه وقت الفراغ لاسيما المعوزين منهم وقد استطعنا ان نوظف مائات من الشبان والشابات ، ولم نقصر خدماتنا على الفتيات بل تجاوزنا ذلك الى الشبان لتعاون الجنسين ما امكنت المعاونة على ان يقطعوا فترات الضيق بشيء من الكفاح الذي يعوضون به مالا يعينهم على متاعب الحياة فضلا عما في ذلك من ضرب المثل على التعاون بين النساء والرجال في سبيل الخير العام .

ويقوم اتحاد بنت النيل الى جانب هذا كله بدراسات ثقافية تبصر سيداتنا وفتياتنا بواجباتهن الاولى ، وهي واجبات الزوجة والمواطنة الصالحة فيدرسن التدبير المنزلي والتفصيل واللغات الحية والتمريض وبعض الدراسات الاخرى التي تجعلهن جديرات بوطن ناهض يريد ان يأخذ مكانه تحت الشمس .

وقد وجد اتحاد بنت النيل من واجبه ايضاً ان يؤمن الاميات من نساء مصر على حياتهن فضرب المثل لذلك بتأسيس مشغل يتعلمن فيه التطريز والحياكة والصناعات الصغيرة التي تؤهلهن للعيش الحلال والكسب النظيف .

كما اسسنا مكتباً لرعاية الأم والطفل وحل مشاكلها ومساعدتها في حالة العوز وعلاجها مجاناً عن طريق اطباء بنت النيل ، وهذا المشروع لايقتصر على القاهرة بل لقد امتدت فروعه في جميع انحاء القطر المصري .

سادتي سيداتي

هذا بعض ماقام به اتحاد بنت النيل لرفع نهضة البلاد ، ولانحب ان نغمط الآخرين المجهودات التي قاموا بها ، وينبغي للتاريخ ان نذكر ان هناك جمعيات نسائية عديدة كالهلال الاحمر ومبرة محمد علي وجمعية المرأة الجديدة ومبرة التحرير وجمعية تحسين الصحة وجمعية الاتحاد النسائي وجمعية طفل المعادي وجمعية الطفولة المشردة ، وغيرها من الجمعيات التي لاحصر لها ، وهي جمعيات تبذل من الجهد والنشاط المحمود مايدل على تفاني المرأة المصرية في سبيل تأدية الواجب .

واذن فالمرأة المصرية تؤدي واجبها كاملا غير منقوص ، ولو فقد المجتمع المصري نشاطها لفقد كثيراً من مقومات حياته ، فمن العدل ان يصيخ الرجال سمعا لمطالب المرأة المعقولة ، فلا يقال في القرن العشرين بانه لايجوز ان تشارك المرأة العربية في الحياة العامة ، لان ذلك لم يقل به الدين الحنيف ولم يؤثر عن صدر الاسلام ، فالاسلام دين الحرية والمساواة وهو الدين الذي اعطى المرأة حقوقها واعترف بكيانها ووجودها وسوى بينها وبين الرجل ، وجمع ذلك في قوله تعالى « ولهن مثل الذي عليهن » .

ولااريد ان اطيل على حضراتكم في نقل الاقوال الكريمة التي نقلت عن النبي العظيم وحسبنا انه قال صلى الله عليه وسلم حين جاء ذكر السيدة عائشة الزوجة المثقفة « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » وحسبنا ان نذكر ان سميه ام عمار بن ياسر كانت اول من ضحت بحياتها في سبيل نصرة الاسلام فكانت الشهيدة الاولى في تاريخ المسلمات المؤمنات ومما يذكر ان امرأة هي التي حمت النبي الكريم من المؤامرة التي دبرت لاغتياله عليه السلام ليلة الهجرة .واننا

نعرف جميعا تلك المرأة المسلمة التي ردت عمر بن الخطاب عن رأي فقهي يتصل بصداق المرأة ، فما كان من الخليفة عمر رضي الله عنه الا ان قال معتزاً مغتبطا « اصابت امرأة وأخطأ عمر » .

واذن فالمرأة العربية سيدة لها في التاريخ مكان ملحوظ اذا اخلي بينها وبين العمل والنشاط تفوقت وصنعت المعجزات في كثير من ميادين الحياة .

سادتي سيداتي

لااريد ان اذهب بكم بعيداً الى اعماق التاريخ الاسلامي ، ولااريد ان اقصر قولي على نشاط المرأة المصرية في العصر الحديث ، بل احب ان اجمل في ختام هذه السيرة ببعض ماعرفه عن الحركة النسائية في الشرق العربي وهي الحركة التي رفعت من شأن هذا الشرق الناهض المتطلع للحياة والوجود .

سادتي سيداتي

تحدثت اليكم حديثاً مستفيضاً عما بذلته المرأة المصرية لتسير في ركب الحضارة وترفع من شأن وادي النيل والآن يسرني ان اسجل على قدر علمي هذا التطور الملحوظ في حياة المرأة السورية ، فقد انتظمت الفتاة السورية في مدارس البلاد وحصلت من العلم شيئاً كثيراً ، وساهمت في بناء المجتمع مساهمة فعالة حتى ان المسئولين لم يروا بدأً من منح المرأة السورية بعض حقوقها .

وبودي لو تتاح الفرصة لسيدات مصر وسيدات سوريا فيضعن ميثاقاً لتحقيق اهدافهن السامية فان ذلك يعني النهوض بالشرق العربي نهوضاً سريعاً يتمشى مع ركب الحضارة الحديثة ، وسوف يجد المسئولون في هذا الميثاق تحية قوية صادقة لما يسعون اليه من تقريب المسافات في المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ان المرأة تستطيع بتأييدها وتعضيدها للرجال صنع المعجزات . وبودي لو يؤمن الرجال بذلك فان ايمانهم هذا سيثبت لهم بالدليل المادي ان الشرق العربي

لن تقوم له قائمة ما لم تأخذ نساؤه مكانهن بين الصفوف مساويات للرجال حذوك الرأس بالرأس .

سادتي سيداتي

احب ان اذكر لكم ان واجبنا نحن النساء يقتضينا ان نتكاتف ونتعاون على البر والتقوى نتعاون ونتضافر فنبني نوعاً من التكتل بين نساء العرب ولاشك ان رجال الشرق العربي وزعماءه سيرحبون بتكتل النساء لاننا اذا استطعنا نحن النساء ان نخلق التفاهم الوثيق بيننا فان معنى ذلك وجود التفاهم التام بين شعوبنا ، وما احوجنا الى هذا التفاهم الصريح في هذه الايام .

ايها السادة

وختاماً اقدم لكم خالص الود وصادق الاعتراف بالجميل على دعوتكم الكريمة وحسن ضيافتكم فانكم ولا غرو افضل ماعرف في طبيعة الانسان الكرم وحسن اللقاء .

المحاضرة الثالثة

كيف يمكن ان نفهم الحرية ؟

الاستاذ فؤاد الشايب

= ألقيت بتاريخ ١٠ نيسان سنة ١٩٥٣ =

ايها السيدات والسادة

بعد لفظ الجلالة الألهية ، ليس في تاريخ الحياة الانسانية ، لفظ اورد على الالسنة ، والصق بالقلوب واضخم في الاخيلة ، واعصى على الافهام ، من لفظ (الحرية) .

فلقد شغلت الحرية الشعوب والدول والجماعات والمفكرين ، والساسة والمصلحين ، لامنذ القرنين الاخيرين فحسب ، بل منذ خمسة وعشرين قرناً ، مثلما شغل الدين والعالم الآخر انباء الانسانية وفلاسفتها ، وحكامها عصوراً واجيالاً .

ومثلما تركت اسرار السموات العليا ، لحدس الانسان ، وايمانه ومصلحته يتداولها كيفما شاء في سره وعلنه ، بعدما اهرقت حولها بحار من الحبر ، على جبال من الورق ، كذلك تركت مواضيع الحرية ، وهي العمود الفقري لجميع مباحث في علوم السياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والاخلاق ـ لتقدير الانسان المتأرجح ابداً بين شعوره المثالي ، ومصلحته الواقعية ، يضعها متى شاء فوق الرؤوس ، ويطؤها متى شاء تحت النعال ، يعطيها لنفسه ترياقاً ، ويحقنها في عروق سواه سماً ، او يصوغها لمعصمه سواراً فاخراً ، ولسواعد سواه سلاسل وعبوديات .

وان تكن العصور الاولى قد عالجت الدين والمعتقدات الغيبية على تعدد مذاهبها ، كروابط اساسية تعقد بين الله والانسان ، لتسوي بها نظام هذه الحياة الصائرة الى زوال ، فالعصور المتقدمة وجدت لذتها وبغيتها في بحث (الحرية) كرابطة اساسية تعقد بين الانسان واخيه الانسان ، لتسوي بها نظام هذه الدنيا التي لن تغيب عنها شمس الحياة .

في البدء نهض فلاسفة الحرية ، وبناة الكون الجديد ، بوجه النبيبات والالوهيات ، يفتون بان اصلاح حال البشر لن يقوم على تحديد علاقة المخلوق بخالقه . فلا ايمان بالله زجر المسيحية المنتصرة في روما عن استعمال سلاح الرومانيين نفسه في اعدائها عندما غدت سلطاناً ودولة ، ولا خضوع الشعب والملك لسلطان ذي الجلالة الالهية ، بقادر ان يلجم طموح الملك ، دون استغلال السماء لاذلال سكان الارض . وهل منع الحروب الصليبية ، اعتقاد مشترك بوجود الله الخالد القيوم ؟! وأي ضمير ديني ، ردع ارهاب محاكم التفتيش ، ومجازر الحروب الدينية في اوربة ؟! وليس بدعاً ان نسمع الفيلسوف (اراسموس) يخاطب الجحافل الصليبية الاوربية قائلا : اذا كنتم تقصدون الشرق للغزو ... فلماذا تحملون الصليب ؟!

... نهض جبارة الحرية ، بوجه المثاليات القديمة ، ورفعوا على انقاض الاقطاع والملوك الطغاة ، مثاليات فاخرة كان يظن يوم رفعوها انها المنقذة من الضلال ، الهادية الى عالم لاتجوسه اقدام الظلم ، والعبودية والحروب . وانكم لتعلمون حق العلم ان تماس الحرية بالجوهر الانساني كان تفجيراً لهذا الجرم الصغير ، وارسالا له في اربعة آفاق الارض ، زوبعة ضارية من الحروب ، والثورات ، وحسبكم ان تذكروا الحربين العالميتين الكبيرتين ، بله حروب الاستعمار في غابات افريقيا وسفوح آسيا ، والحرب الثالثة المقبلة التي يعد لها ما استطاع من قوة ، معسكران في الشرق والغرب ، كل منها ينضوي تحت مثالية جديدة ليس هدفها - كما يزعم - سوى منح الحرية للشعوب والسلام للدنيا .

لقد خلقت الحرية ، والبارود من صلب عصر واحد . وخلقت الدول الاستعمارية الكبرى والمبادىء المثالية الحرة معاً ، فوق انقاض الامارات الاقطاعية .

وضعت الحرية في يد الانسان مفاتيح العلم فسخرت له البحار الواسعة ، ومكنته من مسالك القارات المجهولة ، وسجل التاريخ مبدأ تحرير الانسان في اوروبة واستعباد الانسان في الشرق . وعندما كانت تصب الهندثروتها في اسواق لندن كانت نظريات الفلاسفة والعلماء تصب آراءها الجديدة في روع العالم الاوربي ، حافزة اياه الى النور ، والانطلاق ، وقهر الطبيعة ، وتوسيع الآفاق ، داعية في الوقت نفسه الى زجه في حروب استعمارية ، كان يقودها مبشرون ، ومثاليون ، وعلماء ، وفلاسفة ومخترعو اجهزة ، ومن مشى في ركابهم من مغامرين ، واصحاب مراكب ، ومؤسسي شركات ، ممن رفعهم تاريخ الاستعمار الى مراتب القادة والابطال المحررين .

لقد فجرت الحرية في اعماق الانسان ، ينابيع خيرات ، وويلات ، وضياء ودماء ، وتنوير وتدمير ، واستكتبته في سجل الزمان اهوالاً من مفارقات الاحداث وعجائب الابداع والاختراع ، حتى ليته باحث المثاليات الحرة ـ عبر القرون الثلاثة الاخيرة على الاخص ـ في بيداء مضللة بانوارها وسرابها ، وحقائقها واباطيلها .

بعد ماتبدت لعيون المغامرين ، راكبي البحار تلك القارات السمر ، بكنوزها وخيراتها اطلق شعراء الدول الفاتحة على الحملات ومشاريع الشركات الاستثمارية في الشرق اصطلاح (عبء الرجل الابيض) واصبحت حروبهم تسمى جهاداً ، واستعمارهم تمديناً ، وهكذا يأتي المفكرون الاوربيون في اعقاب الفاتحين ، خلال القرنين الاخيرين ، ليسبغوا على الفاتحين اثواب الفخار ، فيجعلوا الغزو تمدينا ، والثراء بامتصاص دم الشعوب المستضعفة عبئاً تمدينياً والحرية لانفسهم ، عبودية للآخرين ، حتى ان فيلسوفاً عظيما من فلاسفة الحرية كمونتسكيو ، لايتورع في دراسته اثر الطقس والجو على الافكار والعواطف من الدخول في

سفسطة بسيكوفيزيكية ، يخرج منها بمبدأ تغليب العناصر الاوروبية في مناطقها الباردة ، على العناصر الاسيوية في مناطقها الحارة ، على اعتبار ان الاولى اعدتها الطبيعة لتكون قاهرة ، والاخرى خلقت لتكون مقهورة ، وفريسة غزو ، ولا ضير عليها .

خمسة قرون ، والدول الكبرى ، التي نقرأ لمفكريها ، ابدع صفحات المثاليات الخلقية ادبا وشعراً وفلسفة ، تقتتل فيما بينها قتالاً رهيباً ، لايخبو في طرف من اطراف القارة الاوربية ، حتى ينعقد غباره في طرف آخر ، وليست الحربة بعد في غماره سوى انشودة حماسية تنفخ غرور الانسان المحارب . وليس الحق سوى مايكتبه الغالب بدماء المغلوب .

قيل ان البارود وحده بيد الشعب ، هدم قلاع الاقطاعيين ، وكان تفجره بعد ان دالت دولة السيف والفروسية ، فجر اولى انتصارات الانسان الجديد !! قات اليس البارود ، حليف الحرية ، هو الذي جعل ثلاثة ارباع سكان العالم عبيداً في مستعمرات اصحاب المدافع المدمرة ؟!

ومن هم الاحرار ، والمحررون ؟! وما وجه الحريات في العالم ، وكيف يكتب تاريخ الحرية ؟!

ماهؤلاء العلماء والمكتشفون ، والمخترعون الذين قهروا الطبيعة ، وسخروا عناصرها ، وجابوا المجهول ، وهتكوا حجب الاسرار ...!! أمرشدون وائمة وهداة ؟! ام مجرمون ، وقتلة ومجانين ؟!

ايكون مخترعو البارود ومفجرو الذرة ، رجال علم او مجرمي حرب ؟! وهل كان كولومبوس اول كشاف ام اول حاكم مستعمرات ؟!

كيف يكتب الاحرار تاريخ مراكش مثلا ؟! ان الفرنسيين يضعون المارشال (ليوتي) قاهر مراكش في اعلى مراتب التاريخ البطولي في بلادهم . ايكون المارشال بطل تحرير فعلا أم هو مغتصب شعب ، وعدو حرية ؟!

ومن هو هذا الرجل الذي يدعي ماك آرثور ؟! اهو محرر امريكا ... ام مستعبد اليابان ؟!

اسئلة لامقر لها ولانهاية ؟! هاتوا! لنا اسفار التاريخ ، لنقرأ من سمح لجاره ان يكتب تاريخه . ومن اناط تفسير حريته بعـــدوه ؟! اي حرية لم تضطهد الحريات ؟! واي حق لم يزعم لنفسه حقوق الغير ؟!

ان تاريخ الاحرار ، والمحررين ، والحرية ، ليشبه الى حد بعيد تاريخ الآلهة ، والاصنام ، والمعبودات التي رفعت لها الاقوام هياكل التقديس ، والعبادة انماطاً واشكالاً ، كل بما يوافق مزاجه ، وهدفه ومصلحته .

هذا قوم جعل الشمس إلهاً ، وذلك جعل الاله جبلا من جايد ؟!

هذا إله الهرة ، وذاك عبد الثور ، ولقد جعل البعض منحوتهم ذكراً وجعله الآخرون انثى ، وقدسته اقوام من حجر ، وصنعته اخرى من تمر .

وعبد قوم منحوت قوم جار ، عن طريق الاحتكاك ، والتوارث والتقليد . وادخل غالبون على مغلوبين زلمهم واصنامهم عنوة او خداعاً . اذ لاسبيـــل الى فرض الغلبة عليهم طويلا الا اذا عنت رقابهم مع الزمن لمثاليات الغالبين ؟!

اليس في ذيوع اسم الحرية ، كما نرى ونعرف ، وفي تبادله ، وتناقـــله ، وتنوعه ، من حرية ديموقراطية الى ماركسية ، او سنديكالية ، ومن حرية رأس المال ، الى حرية البروليتاريا ومن حرية للاستهلاك ، الى حرية للتصدير ، ومن حرية في المتروبول الى حرية في المستعمرات . اليس في تبدل هذا الاسم بين مقام ومقام ، وزمان وزمان ، مايشبه لهو الانسانية بآلهتها القديمة ، وما يربط مصير هذه الـكلمة الجليلة بمصير كثير من الاصنام التي دالت عندما لم يبق الانسان بحاجة اليها ؟!

ايها السيدات والسادة :

لست ارمي من هذه التوطئة الى القول بان البشرية لم يبق لها من حاجة الى الحرية لانها هزأة وضلال ، أو انها سائرة الى انهيار ، كما صار اليه صنم التمر في جاهلية العرب .

بل اريد ان اصل الى جوهر الموضوع في تفهم (الحرية) ، والى اول الطريق الذي يجب ان نسلكه لنبحث ابهامها . وقد قلت في مطلع المقدمة انها اضخم ما تكون في الاخيلة ، واعصى ماتكون على الافهام .

انها بالواقع ، ليست هزيلة ، بسيطة العقدة والتركيب ، كخرافة صنم التمر ، لكنها على عظمتها ، وجلالتها ، وفخامة جهازها وتعقده ، ليست امنع على الفم والاسنان من صنم التمر . ومثلما جاع بعض افراد القبيلة الذين صنعوا صنم التمر ، فأكلوه ، كذلك فان الدول والشعوب ، والامبراطوريات ، قد اكلت حرياتها عند حاجاتها ، وانزلتها من ابراج السماء الى اثافي الموقد .

انما تؤلف الحرية ايها السادة ، في كل شعب ، باطوارها ، وانظمتها وطاقتها مجموعة من آماله ، ومخاوفه ، مدموغة بطابع مفاهيمه ، وسعة وعيه ، كفرد وكعضو في جمعية اوسع .

وتختلف صورة الحرية لدى قوم عنها في اي قوم آخر ، رغم تشابه مظاهرها احياناً ، وذلك تبعاً لحاجة الناس اليها ، في ادارة شؤونهم الداخلية والخارجية ، ولما درجوا عليه من تقاليد وعادات لايمكن الاغضاء عنها ، وللظروف التي يمارسون فيها نظام الحرية ، ولمواقعهم المادية من جغرافية واقتصادية ، ولاسباب شتى منها الثابت ومنها المتحول والطارىء .

فلا يجوز ان نفاخر ببر بال حرية فضفاض ، بمجرد انه عرض في احدى واجهات المتاجر في باريس ، ثوبا لاحدى ملكات الجمال مثلا ، ولا يمكن ان

يكون نظام الحرية في بلد ما ، ثوباً يضع تصميمه بعض متخيلي الحرية على هواهم، جبة او طيلساناً ، أو قطعة من قماش تكاد لاتستر . وهي ليست آنية فاخرة أو حبيبة يتصورها الوله العطشان ، او لوحة فنية ، يدعيها لنفسه ، فنان او شاعر ، او مولع بجمع التحف والاواني الفاخرة . ان نظام الحرية لشعب من الشعوب ، هو اعراب عن تفاعل العناصر الكمينة في جوهر بقائه ، وافساح لمواهبه وفعاليته، دون أي اغضاء عن حقيقة واقعة ، ومطالب حاجاته ، وقياس ما يشغل من فراغ في مجموعة صغيرة او كبيرة ، هو جزء منها .

كذلك فان اعتراف الشعوب والدول باهمية المثاليات الفكرية في عرض مباديء الحرية لم يمنع من اختلاف وجهات النظر في اساليب تطبيقها ، والباسها لبوس الاقليم والسكان ، فتضاربت اراء النظريين في تحديد معنى الحرية ، وتأثرت دول وحكومات ببعض النظريات في بعض ظروفها الخاصة ، فاخذت بها وقبست عنها ، مما يلائم الحاجات القائمة ، والضرورات المبرمة ، واعرضت عن نظريات اخرى رغم مظاهر صوابها وقوة حجتها ، لانها تناقض حاجاتها في زمن ما ، وتنافي ضروراتها الوطنية في اعتبار ما .

وقد حاول المثاليون محاولات بليغة ، الخروج بالحرية من مستوى العملة الدارجة المتداولة ، في اسواق محلية الى حيز المباديء السامية الشاملة ، والقيم المجردة ، ليطبقوها على مختلف الاجناس ، والاقوام في معالجتهم قضاياهم المادية والروحية على السواء ، ففشلوا واصطدموا بحوائل جمة ، ورغبات جامحة ، واعتبارات مبرمة ، لاقبل للانسان بردها ، لانها تمثل تنافر الطباع ، والاقاليم والمفاهيم . ولان الحرية في آخر مراحل تطورها ، خرجت من طوق الفلاسفة والمصلحين، لتزج في حروب القوي المتطاحنة على مناطق السيادة والنفوذ ، والاستغلال الاقتصادي ، فغدت مذاهب سياسية ، يعد قيامها في دولة ما خطراً على سلامة دولة اخرى وكيانها ، وقد لايكون فلاسفتها المساكين قد ارادوا لها هذا المصير التاعس بين اقدام المتنافسين .

ولست بحاجة الى ان اذكركم بان الماركسية هي احدى محاولات الانسان سبك حرية المجموعات البشرية في قوالب تسري عليها قوانين ثابتة ، وتخضع لها الشعوب من مجاهل آسيا الى اطراف امريكا واوروبة .فهي نظرياً، احدى محاولات اصلاح مفاسد الحرية كما تبناها النظام الاقتصادي الرأسمالي ، وعملياً هي مظهر من مظاهر الصراع ضد الديمقراطيات الاستعمارية ونزول الى ميدان الحروب العالمية الكبري باكبر حشد من الرؤوس البشرية في سبيل السيادة والغلبة .

كذلك لست بحاجة الى ان اذكركم بان مايسمى صراع المثاليات في الحرب العالمية الثانية ، لم يكن سوي عناوين خادعة ، يزجها المتحاربون لدعم معسكراتهم ، وتأمين خطوطهم ، وحفظ سلامة نفوذهم ، فقد حالف النازيون الشيوعيين في مقتبل الحرب العالمية الثانية ، ثم حالف الرأسماليون الشيوعيين في مابقى من فصول الحرب ، ولم تكن احداث العهد ، والخلف ، والحرب والصلح ، بين الدول الكبري قبل الحرب ، وخلالها ومن بعد ، ذات علاقة بأي من المثاليات ، وبأي من مبادىء التحرير والحرية .

ايها السيدات والسادة :

لسنا بغنى عن مثالية الحرية ـ نحن الشعوب الذين نريدها لحياتنا وبقاءنا لالقهر الشعوب ، وبسط السلطان . واغتيال الابرياء ـ على اننا بحاجة الى تفهم تاريخ أحداث القرنين الماضيين ، بأسلوب مكيافيللي واقعي ،لارحمة فيه ولاغباء ،لندرك على الضبط اي درك تدهورت اليه مثاليات الغرب واي نوع من انظمة الحرية يجب ان نختار لافرادنا ، وشعوبنا ، في سبيل بقاءنا وحده وتقرير مصيرنا لانفسنا .

الحرية ـ بالواقع المنجلي يوماً بعد يوم لعيون الملايين من البشر الذين من اجل استثمارهم ، تتطاحن القوى ، لامن اجل حريتهم ولاسلامة المثاليات الرفيعة ـ ليست سوى اسلوب في تعامل الناس ، يخضع لارادتهم ومزجتهم ، وما ذكرنا من اختلاف احوالهم المادية ، والمعنوية ـ كما سنرى ـ ، انما الدولة المثالية هي التي

تعرف كيف توزع بين مواطنيها نسب الحدود دون اي اعتبار لما يجري في دولة قريبة او بعيدة ، صديقة او معادية .

فاذا كانت الديموقراطية ، كشكل من اشكال الحرية ، مثالية حقاً في دولة كالولايات المتحدة الاميركية ، وجب ان تكون شاملة بمبادئها ، ونظمها ، وقوانينها . والواقع ان هذه الديموقراطية ، انما تترك المجال على رحبه للولايات تسن قوانينها الخاصة وفق حاجاتها الاقليمية الضيقة ، حتى ان امريكيا في الولاية الثالثة لايطيق الحياة في الولاية الثلاثين مثلا ، وان القوانين الامريكية لاتزال تحمل روح العصبية ضد العرق الاصفر ولايزال كثرة من الامريكيين تحت انف الحكومة وباسم القانون والواقع ، يضعون الزنوج في الدرجة الدنيا من سلم الاعتبارات البشرية ، على الطريقة النازية .

كذلك فقد اشاد المؤرخون بالدولة الاغريقية القديمة ، التي سبقت الى ممارسة الحرية ، بروع المظاهر ، وخلفت للاجيال تراثاً عبقرياً من نتاج الحرية الفكرية بينما كان مفهوم الحرية الاغريقية ، محدوداً ، وضيقاً ، واستبدادياً الى حد بعيد ، فالشعب في الدولة الديموقراطية الاغريقية كان مقسما الى فئتين : فئة الاحرار ، وهم الملاكون والمحاربون ، والحاكمون والعلماء . وفئة العبيد ، وهم الحارثون والزارعون ، والأجراء . وكان لايحق للفئة الثانية هذه ، ان تشارك فئة الاحرار في ادارة الدولة ، وانتخاب الصالحين منهم او من سواهم لمناصب المسؤولية والحكم . بل ان فيلسوفاً وعالماً وعظيما مثل ارسطو ليفتيك في عدم المساواة هذه قائلا : هؤلاء عبيد وقد ولدوا عبيداً ولايحق لهم مشاركة الاحرار!!

وصواب تعليل العبودية في احضان اكبر ديموقراطيات العهد القديم ان حاجة الدولة ، وضرورة بقائها ، قضتا بنشوء طبقة العبيد الدائمين . ومعلوم ان اثينا كانت ابداً مشغولة بالحرب او بالاستعداد لها او بتجنب اخطارها . وكان الجنود اذا خرجوا الى مسرح القتال ، لايلبسون ان يعودوا ، الى مدينتهم ظافرين ، وما بدل فيها نظام ، ولانقص رخاء ولافتر نشاط . لان الحارثين والزارعين كانوا

يزاولون اعمالهم داخل الاسوار ، كأن لاحرب ولازمة . وهكذا قامت الدولة الاغريقية على نظام ما من استقرار دائم ، بيد جنود ابطال ، واجراء موالين كادحين ، لولاه لما اتيح لهذه الديموقراطية ان تنعم بحياة زاهرة ، وتخلف للاجيال اثاراً فكرية خالدة .

وانه لمن المقرر ان الديموقراطية الحديثة ، تربأ بسمعتها من ان تقبل بنظام ديموقراطي من هذا الطراز ، دون ان يبدل عدم القبول هذا ، مبدأ مقرراً ايضاً ، هو ان الحرية في ظروفها الزمنية المكانية قديمة او حديثة ، لا يمكن الا ان تخضع ، بالنسبة لشعب من الشعوب الى ضرورات حياته ، وبقائه ، ومقومات عنصره ، وطبيعة احواله ، والا كانت الحرية المتذوقة على عريها ، المرسلة على سجيتها ، عبئاً تنوء به اكتاف المواطنين ، ووباء ينقل اليهم شتى صور الموت .

ان الحرية الفردية ، ايها السادة بمظاهرها المبدئية المألوفة في الدول الديموقراطية النيابية من حرية شخصية ، وفكرية ودينية ، مقيدة فقط بعدم مس الآخرين ، والحاق الأذى باشخاصهم وارزاقهم او تعريض كيان الدولة للخطر على المرور من مرحلة تقرير الحرية كمبدأ الى مرحلة تنفيذها كسلسلة من القوانين والانظمة ، ترعى حياة شعب ، وتضمن سعادته ، وتفتح ابواب مستقبله ورجائه ، هو نقطة البحث وموضع الاعتبار .

ويبدو من القاء نظرة عامة على تاريخ تطور الحريات وقوانينها منذ هبوب الثورات الفرنسية ، والانكليزية ، والامريكية ، حتى يومنا هذا ، ان المجموعات البشرية آخذة اجمالاً بزيادة قيود حرياتها ، ضاغطة اياها في قوارير زجاجية مرة ، او سلاسل حديدية مرة اخرى ، بل ان الشعوب في ازمات العصور الحديثة لتسابق الحكومات الى تفصيل القيود ، والزام المسؤولين بها ..!

ففي اوائل القرن التاسع عشر عام ١٨٢٩ كان هبوب الحرية المطلقة في مملكة مثل بريطانيا ، يؤلف شعوراً قوياً ، بالغاً حد العصبية للحرية المطلقة . فعندما

الف رئيس الوزراء آنئذ، اول قوة بوليسية في لندن قوامها ستة الاف شرطي مسلح باسلحة خفيفة ، قامت قيامة الشعب اللندني ، وسار بتظاهرة كبيرة حملت لوحات كتب عليها (اللورد بيل يجمع رجال البوليس من افراد العصابات ويسلحهم ـ الشعب مدعو الى المقاومة ـ الحرية او الموت!!

وانه لمن مفارقات التطور في مفاهيم الحرية . ان الدولة التي انشأت قوة هزيلة من الشرطة فقوومت بصراخات : الحرية او الموت . قد انشأت ادق جهازين بوليسيين كبيرين هما (الانتاجانس سرفيس) و (سكوتلانديارد) خلال نصف قرن تقريباً . وان شعبها الذى كان ارقى شعوب اوربة في تفهم مباديء الحرية والاخذ بها دون ثورة ولادم ، ليقبل اليوم اقسى فروض الدولة على حرياته ، واشد قيود الحرمان على معاشه ورخائه ، فيجوع اياماً حتى لا يموت جوعاً ، ويشتهي في عقر داره بعض انتاج يديه ، ليغزو العالم بما ينتج .

فاذا خطر لباحث ان يدرس تطور الحرية البريطانية ، على اساس نظريات ديموقراطية معينة ، لم يجد في الواقع سوى مفهوم واحد للحرية هو انها مربوطة بمصلحة الدولة والامبراطورية ربطاً وثيقاً . وان الحرية الفردية كما قال فيها (جيفون) الانكليزي ليست غاية بذاتها ، بل سبيلا لدعم كيان الدولة وتأمين الهناءة العامة ، واذا كانت دراسة العوامل التي تساعد الناس على توقع نتائج سياسية معينة في حقل السعادة العامة . تؤدي الى ظهور النتائج ضد الحرية الفردية . يجب على الحرية ان تفسح المجال لتدخل الدولة .

حتى ان كاتباً فيلسوفاً بشر بالحرية الفردية الكاملة خلال خمسين عاماً فكان اكبر عوامل التأثير السياسي في مدرسة الحرية انبريطانية والامريكية والفرنسية مثل (ستوارت ميل) يصحح نفسه في آخر كتاباته ليقول : (اذا دعت الضرورة . فانه من اعظم فضائل الانسان ان يضحي بسعادته في سبيل سعادة الآخرين) . ومعنى ذلك تنازل الفرد عن رغباته الشخصية ليقيدها بالطوق

العام ، وهو استثناء يهدر ركناً اساسياً من اركان الحرية المثالية . واذا فاخرت المدرسة الانكليزية الحرة ، التي اقرت مبادىء الحرية في بلادها دون ثورة، باحد من انصارها ورواداها ، فحق ان يكون الفيلسوف (هربرت سبنسر) احد عمالقة المفكرين في القرن التاسع عشر ، في مقدمة مفاخرها . لانه بما بشر به من تقديم حق الفرد وحريته على حق الدولة ، كان اجرأ من خرج بالحرية الى اجوائها الفسيحة ، حتى بلغ به ان فضل الفوضى على اي تدخل للدولة في حياة الفرد وحقوقه الطبيعية .

على ان هربرت سبنسر ، الذي يصور تطور النظرة البريطانية الى حقيقة استعمال الحرية ، لا الى معناها المجرد المبهم ، هبط في اواخر كتاباته الى المطالبة بتأميم اراضي الدولة ، ومنع النساء من حق التصويت ، مناقضاً كل ما كتبه من كتب مثالية في الدفاع عن حقوق الانسان الطبيعية ، وحريته بالسعادة ، مطلقاً من قيود المجموع .

ولم يغمط المؤرخون والشارحون مزايا سبنسر عندما درسوا نظرياته فقال احدهم وهو المؤرخ (ارنست باركر) ان عذر هربرت سبنسر انه انكليزي ، واننا نحن الانكليز كافة ميالون ابداً الى الفصل بين نظرية خلقية سامية ، وبين تدابير عملية قريبة من الارض . ومن اجل ذلك يقولون عنا في الخارج اننا منافقون مراءون . كذلك يكثر في تاريخ ادبنا ، الذي هو مرآة طبعنا ـ المراءون .. من ديكنز الى ميريديث ...

ثم يقول المؤرخ (باركر) : ان النزعة القومية البريطانية التي تميل الى الفصل بين النظريات والعمليات ، فسحت لسبنسر مجالات الذيوع والانتشار ، عندما كان يهبط من علياءاته النظرية ليتحدث في ملكية الارض ، وحق النساء بالتصويت .

وبالاجمال فان سبنسر يلائم مزاج قوم كالانكليز . والانكليز الذين يرحبون

بمثل نظرياته. جديرون برجل مثل سبنسر. ولا ادري ما تكون ميزات الفلاسفة والمصلحين في امة ما اذا لم يعربوا بصدق عن مصلحة المجموعة التي ينتسبون اليها، بما يشرعون من نظريات، ومبادىء وقوانين.

* * *

اعود ايها السادة الى القول ان مجرى احداث التاريخ خلال قرنين ماضيين، يشير ابداً الى تطور عالمي شبه اجماعي نحو تقييد الحرية، بما لها من علاقة بارادة المجموع، وتبدل احوال هذا المجموع تحت اعتبارات شتى اهمها، توسع طاقة العلم، وسيطرة الصناعة، وارتباك اقتصاديات الدول، وعجز اجهزة الحكم العتيقة عن استيعاب هذه التطورات التي ظهر بعضها بشكل مفاجىء صاعق.

لقد ساد مبدأ (الحرية الفردية) طوال قرن، جميع العالم المتحرر من اقطاعيات الأمراء، ومونارشيات الملوك، واوليغارشيات الفئات الحاكمة، وكانت فرنسا بثورتها، ثم بريطانيا، وامريكا، في مقدمة دول العالم التي سبقت الى تأسيس حكم ديموقراطي قائم على مبدأ الحرية الفردية والتمثيل النيابي الشعبي، استمر حتى اواسط القرن التاسع عشر وكاد ان ينقلب انقلابا بظهور نتائج الثورة الصناعية، واهم هذه النتائج تضخم رؤوس الاموال وتكاثف الطبقة العاملة.

كانت المبادىء البنتامية، المنسوبة الى جيرمي بنتام وآدم سميث، واقرانهم تدعو الى حرية مطلقة في الانتاج، والتصدير، والاستيراد، طالما ان هذه الحرية تخدم مصلحة الفرد الذي تعزز سعادته وثروته سعادة المجموع وثروته، وفقاً لنظرية الحرية الفردية التي كان من المسلم به في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر انها من اسلم النظريات واجدرها بكرامة الانسانية.

ولقد هال المراقبين ان حرية الاتجار في الميدان الاقتصادي قد ادت الى حرية الحصر، والاحتكار، وتعدت الميدان الاقتصادي الى الميدان السياسي، فتحكم الحاصرون والمحتكرون باعنة الحكم، والفوا من ورائه قوة الوحي، ومصدر

السلطان . وانخرط الوف العمال الكادحين عبيداً واجراء ، في مصانع رؤوس الاموال الكبرى ، في شروط خسيسة من الاجور ورعاية الحياة ، حتى طلعت صرخات القرن التاسع عشر ضد ماهو اظلم من الملوك والأمراء ، والاقطاعيين وصاح المصلحون ، وخصوم الحرية الفردية قائلين : هل تجزي الحرية نعمها ، فتمنحها فريقاً من الناس ، وتحرمها فرقاء آخرين ؟!.

اذا كان مبدأ الحرية الفردية يجب ان يسود ، فالحرية اذن لعشرة من المالكين السعداء ، والعبودية الدائمة لملايين العمال الفقراء ، واذا قيل ان العامل وقع عقد عمله مع صاحب العمل حراً مختاراً فجـــواب القول : لاحرية لعاجز وضعيف ، والعقد باطل .

وبالفعل اخذت الدولة تتدخل لحد نشاط رأس المال ، ومساعدة العامل ، بقوانين وانظمة ، ان تكن قد خنقت حدة الازمة بعض الشيء فانها لم تستطع ان تقدم نفس العلاج ، بنفس المقادير ، لجميع الهيئات ، والمنظمات ، والشعوب .

كان ثمة اجماع على وجوب اعادة النظر في مبادىء الحرية السائدة ، الموروثة عن هبوب الثورات الاوروبية الاولى ، والعمل على تقنين الحرية ، وتنظيمها ومنحها كالعقاقير السامة ، بمقادير طبية دقيقة ، علاجاً للمجتمع الذي يشكو من انفلات الحرية ، وتجرعها بمقادير لا حد لها اتخمت ، بعض الناس ، واضوت البعض الآخر . وغدا من المقرر انه اذا لم تضبط عجلات الحرية ، انهارت المركبة في غمار الثورة : حالة تناقض المألوف من النظريات خلال القرن الثامن عشر من ان كبت الحرية وحده يجر مركبة الشعوب الى الاضطرابات والثورات .

وهنا يدخل العالم في دور جديد يختلف كل الاختلاف في حدثه وتجاربه عن الدور الاول لذيوع الحرية . فليس الحديث بعد اليوم ، عما هو نوع الحرية الذى يلائم ذاك النوع من المجموعات البشرية ، بل عما هو نوع الضابطة الـــتى ستعين حارساً على الحرية الجديدة . ومن هنا تطل الماركسية كمثاليـــة للحريات

الجديدة ، يعقبها اعلان الدولية الثانية ، والثالثة وظهور لينين ، تلميذ ماركس ، وانجلز ، والثورة البولشفية ، على اساس ان عمال الارض اينما كانوا لاوطن لهم ، ولاسبيل الى بلوغهم هدفهم الا بثورة عالمية ، تبدأ باعلان دكتاتورية البروليناريا ، وتحطيم الطبقات الرأسمالية والبورجوازية ، وتنتهي بزوال جميع الطبقات ، والبروليتاريا معاً ، ليعيش العالم بلا دولة ولا بيروقراطية .

كلمات مدوية كانها النفخ في الصور يوم الحشر ، تهز العالم ، وتبذر في اوربا الاحزاب الماركسية الاشتراكية الداعية الى العنف والثورة ومقاومة الحرب ، وتسبغ على الحرية رداءً قانياً على صهوة حصان اسود من الهول يجري في تيار من الصواعق المخربة ، حتى اذا انتهى الهول الثوري الاكبر ، جرت سفينة الشعوب بسلام على صفحة يم هادىء مستكين .

وان تكن حرب عام ١٩١٤ قد قضت على الثورة العالمية كما بشر بها ماركس والماركسيون الأول ، وجندت اعداء الحرب ، كلا في صف جيشه ووطنه ، فقد غارت في الارض لتنبع ثانية في روسيا على يد لينين ، وينتج في مختلف الدول الاوربية حركات جديدة محلية ، تدعو الى الاصلاح والتوجيه ، او الى الثورة والتدمير . واذ باوروبة مجموعة من الاتجاهات والاحزاب والمنظمات التي غالباً ماارتدت وراء اسمائها وصف (الاشتراكية) ، مع فروق واضحة ، متضاربة احياناً رغم مسحتها الاشتراكية الاسمية .

وليس عجيباً بعد ان يقال بان الهتلرية النازية قدمتحت ماءها من تلك البئر الماركسية ، ومزجتها بفلسفة المانية (هيغلية) لتجعل منها شراباً المانياً ، يوافق المزاج الالماني ، والطموح الالماني ، والآمال والمخاوف الالمانية ، في الفترة التي تلت الحرب العظمى فدعيت الاشتراكية الالمانية الوطنية .

وسواء أكانت اشتراكية عالمية سوفياتية نرتقب منها زوال الدولة بزوال جميع الطبقات ، او اشتراكية وطنية المانية ، او اشتراكية ديموقراطية فرنسية

او بلجيكية ، او بريطانية فمن المقرر ان الدولة بعد الآن ستقرر مصير توزيع الحرية بمقادير مضبوطة بين افرادها . ولما كان العنصر الاقتصادي في حياة الامم اقرب العناصر ، والصقها بالعامل السياسي ، فقد امتدت يد التقنين الى الحرية الاقتصادية بالدرجة الاولى ، حتى ان ديموقراطية حرة كاميركا ، بعيدة عن تيارات الصراع الاوروبي ، لم تنج من عدوى روح العصر ، فقام فيها منذ عام ١٩٣٣ تجمهر جمع اكثر من الف وخمسمائه اقتصادي ومالي قرروا في مؤتمر لهم ، دعوة الدولة الى التدخل في تنظيم الحياة الاقتصادية انقاذاً لها من الافلاس ، والتدهور ، وبالواقع فانه لاحرية لمشرف على الهلاك . ولا بد له ان يختار لحياته وبقائه مايحلو ، وانه لمختار بلا تردد .

سيداتي وسادتي :

قلنا ان الدولة مدعوة انما كانت الى التدخل ، خلافا للمبادىء المثالية التي وضعها الثوريون ، والمثاليون الاول في كل من فرنسا ، وبريطانيا واميركا ، ونزولاً عند ضغط الضرورات العصرية ، وتعقد المعضلات الاقتصادية والمالية . في عصر الصناعة والسرعة والحروب العالمية . يبقى ان التدخل يتخذ اشكالاً تتراوح بين الشدة واللين ، بين دولة ودولة لاتبعاً لمبادىء عامة في الحرية وتقنينها ، بل اخذا باعتبارات جغرافية واجتماعية محلية ، وسياسية دولية عامة ، ليس هدفها على الغالب ضمان الحرية كغاية في ذاتها ، فالحرية ليست غاية ، ولا يمكن ان تكون ولا كانت ذات يوم بلا هدف كما علمنا من بعض ماعرض ، بل هدفها ضمان العدالة الاجتماعية للشعب والسلامة الوطنية لكيان الدولة ، في اسمى اعتباراتها .

وقبل ان اقف ملياً عند هذين الهدفين ، اللذين يلخصان فلسفة السياسات الواقعية لدى كل الدول والشعوب ، بصرف النظر عن اماني الشعراء وتخيلات المثاليين ، اريد ان امضي بعض الوقت في عرض صور وانماط مختلفة للحكم والدولة .

ان عالم اليوم ليتميز بهذه البابلية العجيبة في تضارب اشكال الحكم

الداخلي ، وتكييف كم الحرية فيه تحت ضغط الضرورات الوطنية والعالمية . واذا اضفت الى الضرورة الوطنية التي هي المبدع الاول لصورة الحكم الملائم لشعب حر في زمن ما ، (ضرورة اخرى عالمية) فلكي اشير بالضبط الى تشابك المصالح الدولية ، على تحالف او تناب ، تشابكا اصبح يضع الدول وكأنها على بساط واحد اذا اهتز منه طرف ، تجاوبت له جميع الاطراف .

وقد يكون من الاجدر بالبدء ، ذكر تلك التجارب في الحكم التي تمر بقارة غنية كبيرة رائعة ، بكر ، كالقارة الامريكية اللاتينية ، والتي يتدفق من دولتين كبيرتين فيها هما البرازيل والارجنتين ، نور الرجاء بعالم افضل وحياة اجمل ، البرازيل ذات المساحة التي تقارب مساحة الولايات المتحدة الاميركية او تزيد عنها ، والارجنتين ذات العشرين مليوناً في رقعة تتسع لثلاثمائة مليون . دولتان تمرعان في رخاء طبيعي ثر الينابيع داني القطوف تحرص كل منها على كيانها القومي ، في معزل عن زعازع العالم الصاخب المصطرع في سبيل الكسب والعدوان ، والسيادة العالمية الرعناء ، وتنمو في ربوعها مبادئ عادلة ، وتمازج من الحكم ، ليس لها هدف سوى افراغ كنوز الارض في احضان العاملين الكادحين المجدين ، ليعيشوا في كنف السلامة والعدل والرخاء . وان موقعها الجغرافي وثرواتها البكر ، وبعدها عن القارات الصاخبة المصطفقة كاطباق من نحاس في رياح من شهوات الفتح ونزوات السيطرة ، وحيادها في معارك الشرق والغرب ، عوامل تنزهها عن الاخذ بهذه او بتلك من نظريات الحكم والسياسة ، وتتيح لها تلك السعة التي تمكنها من ان تبدع لذاتيها طرازاً من الحياة والحكم ، سيكون مثالياً حقاً في عالم الغد القريب . فالارجنتين تساس بنوع من الحكم التمثيلي الموجه ، دون حرج ولا احراج وتطمئن البرازيل الى نوع من الحكم الاتحادي الذي يلائم ولاياتها الشاسعة المترامية الاطراف ، وتستمر التجارب السياسية على كل حال في مدى نشاط كل من الشعبين ، دون صخب ، ولا عجاج ، ضمن شروط متوفرة من سلامة وطنية ، وعدالة وارفة .

وانه لمن طبيعة الشعوب التي تتوفر لها هذه الاحوال المادية والمعنوية ان تنصرف الى متعة العمل والرزق ،فيقل فيها محترفو السياسة ، وقارعو الصدور ونافخو الابواق .

اما اوروبة فتسودها على الغالب سياسة المعسكرات والميادين المعدة لاستقبال الجيوش وتصريفها ، فالنظم السياسية سواء اكانت خاضعة للنفوذ الرأسمالي بتعبير السوفيات ، اوقابعة وراء الستار الحديدي بتعبير الديموقراطيات ، تكاد لاتمثل في الواقع من نظريات الحكم ، سوى مبادىء (سياستها الخارجية) . وان الوزارات لتتضاءل في تلك الدول حتى تصبح شعباً في وزارة الخارجية .وما هذه الوزارات بعد سوى حلقات في مجموعة دولية لاسياسة لها سوى الاستعداد للحرب اواتقاء خطر الحرب . وان في بعض ديموقراطياتها النيابية من تهاتر الحزبيات وتنافر الاتجاهات ، والتباغض ، والتنافر ، والتساحق مايدمي العين جزعا على مصير الحرية الممزقة بين المتجاذبيها من عشاقها وانصارها .

وتختلف انظمة الحكم في مناطق منها ، اختلاف اشتراكية المارشال تيتو، عن كتائبية الجنرال فرانكو وتختلف في فرنسا عنها في سويسرا ، وتختلف عن هذه وتلك ، دول الشمال السكندينافية والاتحاد السويسري ،بانظمة تمثيلية هي ارقى مابلغته الامم الحرة المسالمة من بسطة العيش ومتعة الحياة ، واننا لنعلم انها امم مدينة بنجاح حياتها السياسية الحرة الى نعمة الاستقرار وحياد مطلق في معارك الشرق والغرب خلال اجيال والى مستوى عال من الرزق والفكر ، متوفر لكل فرد من افرادها . ولقد حققت هذه الدول اعظم رسالة يمكن ان تطمح اليها الانسانية ، الا وهي رسالة الحياد ، وانها لترفع كفها البريئة بوجه الجحافل الغازية ، فتفرق وتجزع واذا فجرت هذه وتجرأت على اجتياز الشريط الحريري الذي يطوق حدود الحياد ، فليس يعني ذلك سوى الهزيمة كتبت لها ، لانها غدت في موقف الحرج الذي لاتدخر لغدها منه شيئاً فهي جحافل مضطربة القيادة ، مشلولة الجهاز العصبي .

وفي بريطانيا ، اذا كان الصراع بين الاشتراكية ذات الحدود ، وبين مبادىء الحرية التقليدية ، التي يمثلها حزب المحافظين ، مايزال قائماً ، فان في ذلك دليلا على مناعة الحصون الاولى التي اقامت على سواعد الحرية الفردية وشركات الاستثمار ، قواعد التوسع ماوراء البحار ، ولاتزال تكابر امام حقائق تجابه الشعب البريطاني في معضلاته الاقتصادية الكبرى .

على ان في الشعب البريطاني ميزة ، تقذف بوجهه غالباً ، اتهاماً بالمراءاة والمكيافيلية . فلايكترث . انها ميزة من يعرف كيف يشد نطاق الامبراطورية او يرخيه عند الضرورة مثلما يعرف كيف يوسع نطاق الحرية او يضيقه عندما يشاء . وقد قال فيلسوفهم (هوبس): اننا شعب لانستطيع ان نعيش الا في عالم الواقع. وقد ذكرت لكم مثالاً عن تطور الفيلسوف سبنسر بين مبشر عنيد للحرية ، وعدو لها في بعض احوالها وظروفها . ولن ازيد .

ايها السيدات والسادة :

ساحدثكم اخيراً عن امريكا في نظامها الديموقراطي الحر ، الذي هو بالواقع نظام تمثيلي ثابت الأسس مستمر النشاط منذ عام ١٨٠٠ او قبل بربع قرن عندما باشرت هذه المجموعة من الشعوب حياة اتحادية حرة . ومرد بقاء هذا النظام في حقليه الاقتصادي والسياسي ، فعالاً قوياً خلال حقب وازمات ، الى عوامل ، عدة اذكر بالدرجة الاولى أهمها ، وهو طول حقبة العزلة التي جنحت امريكا اليها خلال قرن وربع القرن ، بعيدة عن الارتجاجات الداخلية والخارجية ، تجتر بهدوء وسلام غذاءها الارضي الفاخر . ومعنى ذلك بتعبير رمزي (لوولتر ليبمان) احد ائمة التفكير السياسي في امريكا ، انه لم يكن للولايات المتحدة (سياسة خارجية) شأنها شأن الدول المحايدة كالدانمرك وسويسرة اللتين اينعت فيها ثمار الديموقراطية الحقة في ظلال السلام والرخاء . وانه لمن المقرر كما يقول — ليبمان — ان على الديموقراطيات لتبقى ديموقراطية مثالية ان تختار العزلة الجميلة ... او فلتتنازل عن مثالياتها .

كذلك فمن اسباب نجاح الحكم الامريكي الحر سعة رقعة تلك القارة الكبيرة ، وضخامة انتاجها ومواردها ، ورؤوس اموالها ، وطموحها الى سيادة اقتصادية عالمية — بعد خروجها من العزلة — وهي سيادة تتعارض بالفعل مع قبولها اي قيد للحرية الاقتصادية ان في الميدان الداخلي ، لو في الميادين العالمية .

واذا كانت (الحرية) ، شيئاً من نسيج المادة الوطنية المحلية . كما سبق واشرت وهي ذات هدف ، كثيراً ماتنقطع صلته بالعاطفة والمثالية ، ليغدو معبوداً قائم القيمة ، مصون الكرامة ، وجب ان اقف ريثاً لادخل معكم في احشاء تمثال الحرية الامريكي ، وهي احشاء لم تعد سراً على المباضع .

فاذا قلنا بلغة التشبيه والتمثيل ان الحرية من الطراز الفرنسي غالباً ماتكون عاطفة ، وصخباً مقرونين بكثير من الادعاء والتشوف ، وان الحرية من الطراز الانكليزي ، ليست بعيدة الشبه عن (ميزان حرارة) في جو متقلب الانواء ، يسجل الارتفاع والانخفاض تبعاً لعواطف الرياح في امبراطورية واسعة الأرجاء قلنا ان الحرية من الطراز الامريكي ليست في جملتها سوى ترجمة حرفية لكلمات منفعة ... ومادة ...! ادولار ...الخ الخ ...

ولكي تتضح لناصورة عن حريتي الانكليز والامريكان في مجال الصراع العنيف ، وراء واجهة الديموقراطية الجميلة ، لزم علي ان الخص لكم ثلاثمائة صفحة من كتاب طريف ظريف ، للكاتب الامريكي (كيت هتشسون) عنوانه (الشريكان الخصمان) واطمئنكم بانني سافعل ذلك ببضع دقائق صغيرة .

تعلمون ان الانكليز هم الذين اوجدوا مبدأ الحرية الفردية المطلقة عندما اخذوا ينشرون راياتهم وراء البحار ، ويشجعون الطموحات والمغامرات ، ورؤوس الاموال ، والمبشرين معاً في المناطق التي يريدون ان يوسعوا اليها آفاق طموحهم البحري ، بعد ان حطموا (الارمادا) الاسبانية .

ويأتينا كتاب (هتشيسون) ليقول لنا ان سلامة العالم تتوقف اليوم الى حد كبير على التوفيق بين مبادئ التنافس العنيف التي تفرق بين دولتين شريكتين هما امريكا وبريطانيا .

فبريطانيا لمت نفسها لتأخذ بمبادىء التوجيه الاقتصادي ، وحصر الحرية بالبرنامج ، وانشاء دولة اشتراكية ، واما امريكا فلاتزال على موقفها لاتدين بسوى الانطلاق الحر في الميدان الاقتصادي .

كان الشريكان الحليفان على صراع دائم قبل الحرب . وراح كل منهما خلال الحرب يدبر الخطط لنفسه وفي سره ، للاستيلاء على الاسواق العالميـــة ، وعندما كانت الحرب على وشك النهاية ، والنصر يلوح لهما مع اول فجر ،والاسواق صائرة الى الخلو حتما من البضائع الالمانية واليابانية ، والاوروبية معاً ، بلغ الصراع اشده بين الشريكين المتنافسين . كان الامريكيون يقولون (اذا كانت امريكا تلجأ الى الجرأة في ميدان الصراع ، فدأب الانكليز الحيلة والخداع) . وكان الانكليز يقولون (ان كبار ضباط امريكا في اوروبة ، هم ممثلو شركات بلباس جنود) وهكذا فقد نزل الشريكان الى اسواق ما بعد الحرب ، خصمين عنيدين ، فهل تكفيها الاسواق ؟! يقول الانكليز ان فيها لمتسعاً كبيراً ، لوقبلت امريكا مبدأ التحديد في الانتاج الداخلي،والتوزيع الخارجي معاً . ويصيح الامريكيون، لاحدود في الداخل ولا في الخارج ! اننا لانقتل صناعتنا ولاتجارتنا ، ولانحيد عن مبدأ حريتنا . وسواء في الميزان ارتداد بريطانيا عن مبادئ الحرية،او تشبث امريكا بها ، فالحرية مترجمة الى عملة دارجة — كما ترون — ليست سوى سلامة الامبراطورية البريطانية او سيادة الاقتصـاد الامريكي .

ايها السيدات والسادة :

انا في ختام الحديث معكم هذا المساء ، ولست من الحديث كله الا في مخارج حروفه ومطالع رؤوسه . فهو شاق ، معقد بعيـــد الغور حاولت تبسيطه

تبسيطاً واقعياً محاولاً اخراج فكرة الحرية من قوقعة الخرافة في اليم ، لاضعها بعريها على رمال الشاطئ .

لقد رأيتم معي ان الحرية والاشتراكية تعبدان باشكال ونماذج مختلفة متضاربة ، من حرية موجهة الى حرية مطلقة ، ومن اشتراكية دولية الى اشتراكية وطنية ، كما عبدت الاوثان والاصنام في سالف الازمان ، كل قوم يصور فيها مخاوفه ومطامحه واقليمه وروحه .

وقد تدرس الحرية في صفحات الاسفار ، ولكنها لاتعرف بوجهها الحق الا في وقائع الحياة . فالحرية في العصور الحديثة ، اذا راجت ودرجت على كل لسان ، وتداولتها كل يد قد هبطت من مثالياتها لتدرج في مطرحها العملي في وسادة السياسة والحكم . وليس الا في انظمة السياسة والحكم تعرف معرفة اليقين ، لامعرفة تخيل وتمنٍ .

والواقع السياسي في عالم مشحون بالاحداث والاضطراب ، ان الحرية اجمالاً انما يحدها عاملان اساسيان هما : عامل السلامة الوطنية وعامل العدالة الاجتماعية .

اما العامل الاول فقد كان ابداً حداً ملازماً للحريات ، في زمن الثورات والحروب ، ومجابهة الاخطار الخارجية . فلا تردد في الاختيار عندما يدعى شعب الى احد امرين : حريته او بقائه .

واما العامل الثاني — عامل العدالة الاجتماعية — فقد كان قبل ازمات العصور الحديثة ، يحد الحرية بالقوانين العامة ، التي تنهي حرية الفرد عند مساسها بحرية الآخرين ، وأصبح اليوم متسع النطاق ، يتناول حريات الافراد في كثير من ميادينها ، وعلى الاخص في ميدانها الاقتصادي . ومن هنا نشأت الاحزاب الاشتراكية ، والدول الاشتراكية المختلفة المذاهب والنزعات لتحقق العدالة في مجموعة ، اضرت بها الحرية ، فاستعبد رب العمل عامله بالفقر ، واستعبد

العامل رب العمل بالتمرد والعصيان ، وكان لابد بنتيجة الصراع ان يفقد احدهما حريته . في نهاية مايسمى بالصراع الحر ، فيختل التوازن الاجتماعي وتضيع العدالة هدراً ، بين فئة غالبة عنفا ، واخرى مغلوبة عجزاً .

لقد استغل العامل حرية التجمع والتعاون والتآزر ، ضمن حدود القانون العام فتجمع في ساحة العمل ، واضرب ، واحتل المصنع ، وعطل الانتاج . قال للدولة ان القوانين تبيح له التآزر والتجمع فقالت له الدولة الحديثة : لاحرية في التخريب . وظلم رب العمل عامله بان حدد اجره بثمانين قرشاً خلال عمل يدوم اثنتي عشرة ساعة . فتدخلت الدولة لتعطيه مائة وستين قرشاً خلال عمل يدوم ثماني ساعات . قال رب العمل للدولة : انا حر ، والعامل وقع عقد العمل بملء حريته . اجابت الدولة : ان العامل ضعيف عاجز ولا حرية لعاجز .

لقد اقر شعبنا كما اقرت شعوب اخرى قبلنا الزامية التعليم الابتدائي وانه لقيد ، يحد بشدة حرية المواطنين ، لاسيما في مجموعة بشرية لاتقبل بابنائها راغبة طيعة نحو حياض العلم ، لقد سلبتهم الدولة ابسط مظاهر حريتهم وكانت كلمة الدولة الحديثة لهؤلاء الاشقياء (ان لاحرية لجاهل) .

... ويدعى هؤلاء الجهلة الى صناديق الانتخاب ، ويقال لهم الا تعرفون من هم ممثلوكم ؟!

ان لدى (ارسطو) منذ مئات السنين جواب هذه المعضلة بقوله : كل مجموعة تعد مواطنيها لاسباب الاشتراك في الحكم ، وتوزيع مناصب الدولة بحسب الاستحقاق ولاتتوفر لدى هؤلاء المواطنين اسباب معرفة بعضهم بعضاً ، ومعرفة الحقائق الوطنية حولهم ، فان كل احكامهم التي يصدرونها ضالة ومضلة !!.

ويقرر بعض الفلاسفة ان الجاهل يجب ان يحرم من التمتع بحريته السياسية فيحال بينه وبين صناديق الاقتراع ، كالمجانين والمجرمين والاطفال .

كان برلمان فرنسا هزيلا بعد هزيمة عام ١٨٧٠ فحمل السياسي الفرنسي (غامبيتا) حملات عنيفة على مجلس يضم (شعثاً) من القوم يظنون انهم قادرون على تأليف (وحدة) في الحكم ؟؟ وقال : (الداء في صندوق الانتخاب) ، وشبه الانتخابات بالمرآة المحطمة التي لاتعرف فرنسا فيها وجهها عندما تنظر اليه .

كان غامبيتا يوضح ان لاسبيل الى ممارسة الشعب سلطته الفعلية الا بالعلم والمعرفة والوعي الصحيح . وقد اطلق كلمته المشهورة عام ١٨٧١ :(مدارس... مدارس ... اريد ان ينزل العلم الى الشارع والساحة العامة ، ويقدم بسهولة ويسر في اصغر المدارس . اما الاقتراع العام وهو سبيل القوة بالعدد ، يجب ان يكون سبيل الحكم المنور ، بالعقل) . ولقد سخر (غامبيتا) من قوة العدد في برلمان ذاك العصر وهو صاحب الكلمة المشهورة (ان الاربعمائة نائب فرنسي هم اربعمائة صفر .)

ايها السادة

ان الحرية شراب لاطعم له دون عدل . والعدل بعد أن اردف اجيالاً على هامش الحرية اخذ يعقلها عصراً بعد عصر ، تبعاً لتزايد الحاجات ، ونشوز الانسان في اساءة استعمال الحرية ، واذا كان العدل اصبح قواماً على الحرية في الامم المتطورة البالغة بممارستها الحريات اشواطاً ، ومراحل ، فما حال الشعوب التي ماتزال تتسكع في ثنايا الطريق .

ان نظاما نيابياً ، ينتسب للحرية بلا حشمة — يدعو عشرين الف فلاح الى انتخاب حر في منطقة انتخابية ، لايعرف فيها هؤلاء القطيع ، سوى راعيهم أو رئيس عشيرتهم ، او مالك اراضيهم ، فيسميهم هذا النظام احراراً ، ويسميه المصطفى الشرعي !! فاي حرية زائفة تلك التي تمثل الحملان بجزارهم ، والصورة بقفاها ؟! اي ممثل هذا الذي تسنم كرسيه على ظهور جهلة ، هو يعلم ان جهلهم

وحده سيحمله ثانية وثالثة الى مهزلة تمثيلهم ؟! اي عطف يشعر به نحوهم واي مصلحة اجتماعية تربط مصيرهم بمصيره ؟! اي نظام هذا النظام الذي يعطيهم كل (الحرية) ويحرمهم من بعض (العدل)!؟ واي نظام يمارس حكمه بالحرية السياسية، بينما تخنق في القاعدة، حريات الحياة الاجتماعية والاقتصادية العادلة ؟! أليس نظاماً سياسياً كاذباً ذاك النظام الذي يسمي هؤلاء العبيد الاشقياء، احراراً بمجرد منحهم حق التصويت ...! والى متى نحجب العدل عن الناس بصور من الحرية الخادعة .

ايمكن ان نضع في منطلق الحلبة، مقعداً، واعمى، ومريضاً، ومغلولاً، يتقدمهم في مدى مئة ذراع، رجل صحيح الجسم، والحواس معد للوثوب .... وندعو الجميع الى العدو والتسابق ثم نسمي المهزلة مسابقة في العدو ؟!

ان الحرية مع التفاوت الاجتماعي، تثبيت فعلي للتفاوت وتوسيع للابعاد بين المحظوظين والمحرومين، وتلك حالة لايدعمها من الاحرار سوى المحظوظين في درجات التفاوت الاجتماعي .

قد يقال ايها السادة ان الحرية تداوي معضلاتها بنفسها، مع تراخي الزمن، وتطور مراحل التجارب . وجواب هذا القول في شقين، الأول ان الدول في عصر السرعة والتزاحم وتشابك المصالح . غير مستطيعة ان تترك التطور البطيء يفعل فعله في معالجة معضلات الحرية . وما قد يصح في القرن الثامن عشر والتاسع عشر لايصح في القرن العشرين . ناهيك عن ان اكثر الدول التي نشأت في القرنين الماضيين على اساس التطور . دون تدخل الدولة، غاصت في معضلات التفاوت الاجتماعي مع الظلم حتى باتت الاتجاهات الثورية تهدد ابداً وضعها الداخلي، وكيانها الوطني، دون ان تقوى على معالجة امراض التفاوت الاجتماعي بالليين والمصالحة .

والشق الثاني ان شأن التطور البطيء في ممارسة نظام حر، مشروط

بعناصر اساسية يجب ان تتوفر في دولة ما ، هي السلامة الوطنية ، ضمن طاقة متسعة للعزلة الفاخرة ، بعيداً عن عالم مشحون بالزعازع ، والمطامع والاخطار . وقلما يتوفر هذا الشرط الا لدول معدودة في هذا العصر .

فلا بد والأمر على ماهو عليه ، ان تتدخل الدولة في بناء الكيان الوطني على اساس قاعدته (العدل) ، لتنهض ببناء ، اجتماعي صالح خلال سنين ، متجاوزة تعاقب التجارب الطويلة عبر عشرات السنين ، مما كلف بعض الدول ، اهوالاً من العناء ، والشقاء والدم المسفوح ، والجهد المضيع عبثا .

اقول العدل في قاعدة النظام السياسي قبل (الحرية) وانا على يقين من ان (العدل) هو الذي يوزع الحرية ، وليست الحرية التي تمنح العدل دائماً .

اقول العدل الذي يعقل الحرية وينظمها ، لا الحرية التي تردف العدل وراءها للزينة ، وللواجهات المثاليات الفاخرة .

اقول العدل قبل الحرية ، ولا اعني عدل المحاكم ، والقوانين الرائجة التي قد تثبت بالقانون درجات التفاوت الاجتماعي . فالمحاكم قد تصد ظلماً قانونياً ، وليست قادرة على صد ظلامة اجتماعية . بل كم من حكم عادل اثبت ظلماً صارخاً .

« وما ربك بظلام للعبيد »

« وماظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون »

المحاضرة الرابعة

شبابنا في الحياة الاجتماعية العربية

السيدة امينة السعيد

=القيت بتاريخ ١٧ نيسان سنة ١٩٥٣ =

حضرات السادة والسيدات :

حديثنا اليوم عن الشباب العربي ، والشباب كما لايخفى عليكم عماد الاوطان ولست في حاجة لأنّ اسهب في وصف أهمية هذه الفئة من الناس ، فكلكم يعرف تمام المعرفة ان الشباب في كل زمان ومكان يمثل المحور الحقيقي للحياة الاجتماعية ، ومنزلته منها منزلة العمود الفقري من الجسد ، فأن اصابه اختلال ، اختلت أمور الشعب كله ، وأصبح من العسير عليه أن يقوم بواجباته كاملة ، وأن يكون — كما ينبغي ان يكون — شعباً صالحاً يأخذ ماله ويؤدي ماعليه في تبادل طيب بين النفع والانتفاع ، هذه السنة التي لاغنى عنها ، لكل امة راقية ترسم خطى الديموقراطية الصحيحة في تدعيم صرح العدالة الاجتماعية السليمة .

واحب أن تعلموا أولاً : أنني قد عاهدت نفسي وضميري منذ زمن ليس بالقصير ان اترك أساليب المجاملة في مخاطبة الناس ، وأنّ اقول لهم الحق كل الحق مهما كان مؤلماً ، وذلك لان وطنيتي المنزهة عن الشوائب والاغراض ، وعروبتي المتغلغلة في قرارة كياني الحسي والمعنوي ، ورغبتي المفرطة في معونة بلادنا على اخذ نصيبها من التقدم والارتقاء ، قد دلتني على ان المجاملة في الحق اثم كبير ، أقل مايقال في قبحه وضرره ، وأنه يضلل الأذهان فيما يجب ان تهتدي اليه ، ويعمى

الابصار عن عيوب وأخطاء جسيمة تقف حائلا دون بلوغ الخير الذي ننشده جميعاً . ولا أظنني أجانب الحق اذ أقول : ان المجاملة والملاطفة والملاينة ، التي اتخذها قادة الفكر عندنا تقليداً لهم خلال السنوات العشرين الاخيرة ، كانت من غير شك سبباً هاما في عرقلة النهضة العربية ، وعاملا رئيسيا في جهل الناس بحقائق احوالهم ... واذا كان هدفهم من ذلك ان يكسبوا عطف الجماهير وتأييدها ، فقد بلغوا هدفهم على حساب الصالح العام ، وكلفتنا انانيتهم ثمنا غاليا ، دفعناه من عزتنا كشعوب ارادت ان تكون شيئاً مذكوراً ، فلم نستطع ان نكون شيئاً مذكوراً ... أما أنا فقد عاهدت نفسي على الصراحة ، وسيكون الحق بغيتي في هذه الكلمة ، وسأقوله لكم بما فيه من مرارة وقسوة ، وسأبحث عن النقائص قبل الفضائل ، وأسرد العيوب قبل الحسنات ، حتى يمكننا ان نجابه الواقع ، ونعرف من امور انفسنا ما يجب ان نعرفه ، فاذا أوسعتم لي صدوركم كان خيراً وأبقى ، وان اغضبكم حديثي ، فأجري رغم ذلك عند الله محفوظ .

واحب ان تعلموا ثانيا : انني اخترت ان ابتعد بكم في هذا الحديث عن ماجاء في الكتب والاسفار من بحوث في امور الشباب ، ولست أنوي بحال من الاحوال ان اعدد لكم ما ينبغي ان تكون عليه واجباتهم في المجتمعات المتقدمة ... فمثل هذا الاتجاه — على ما اعتقد — تعلق بالنواحي النظرية ، التي يكون تطبيقها مستحيلا بغير وجود مجتمع متقدم ، ارتفعت فيه مراتب الفكر والعلم والتمدين ، بما يجعله قريبا جداً من المبادىء المثالية ، التي يدعو اليها العلماء في بحوثهم العميقة . ونحن — بلاشك — مازلنا في منتصف الطريق الى هذا المجتمع المتقدم ، وأمامنا الى نهايته مرحلة طويلة تتطلب منا جهداً ومشقة ، ولنا فوق ذلك ظروف واحوال خاصة ، ربما احوجتنا الى مالا تحتاج اليه امم اخرى غريبة عنا بمتاعبها واحكامها . فلأن نحسن الكلام في الشباب يجب ان نكون عمليين نعيش في واقع امورنا دون غيرنا ، ولان نستفيد بالكلام يجب ان نكون صريحين ، لانتوانى عن الاعتراف بعيوبنا ، ولأن نصل الى نتيجة مرضية يجب ان نبني آراءنا على ما نلمسه بأنفسنا في صميم حياتنا العربية الحاضرة .

سيكون هذا رأيي في حديثي اليكم ، فأنا كما تعلمون احرر صفحة اسبوعية تصلني بقلب الحياة العربية ، فتغنيني بمادتها الثمينة عن الالتجاء الى النظريات ، ولا تظنوها مبالغة ، انني اتسلم بريداً لااول له ولا آخر من مصر وسوريا ولبنان والعراق والاردن والحجاز ، واصحاب هذه الرسائل يتحدثون الي عن متاعبهم ويروون لي قصصا مختلفة اقنعتني بعد طول تأمل وتفكير ان العالم العربي وحدة متماثلة الفروع والاصول ... واذا كانت هناك خطوط واضحة ترسم الحدود الفاصلة بين دولة واخرى ، فان هذه الخطوط — على قوتها — لم تستطع ان تغير من تشابه الاحوال في مختلف البقاع ، او تفصل بين متاعب هذا الشعب ومتاعب ذاك ... والظاهرة اننا جميعا متماثلون ، في اوضاعنا الاجتماعية ، وما يعانيه المصري ، يعانيه السوري واللبناني والعراقي والاردني ، وما ينقص بلادنا ، ينقص بلادكم ، وما تتطلعون اليه نتطلع نحن اليه ايضا ، وهذه من غير شك رابطة عجيبة تكاد تجعل منا شعبا واحداً في الآلام والآمال على الاقل ..

ومما يعينني على القطع بهذا الرأي ، ان الناس يثقون بي الى حد مذكور ، فيكشفون لي الحجب عن صدورهم بمنتهى الصراحة ، ولا يتحرجون مطلقاً عن سرد أدق امورهم ، حتى اذا كان فيها مايشينهم .. وقد يدهشكم ان يلجأ الي رجال ونساء من مختلفي البلاد والاوطان ، معظمهم بلغوا مرحلة النضج السني والفكري وكان خليقاً بهم ان يحلوا مشكلاتهم بأنفسهم .. أو يطلبون المعونة ممن هم اقرب اليهم مني .. ولكننا نعاني في مجتمعاتنا العربية أزمة ثقة ، والعربي منا على كثرة أهله وناسه ، لايجد الصدر الحنون الذي يقدر متاعبه ، ويغتفر له سقطاته وزلاته ، ويعينه في تسامح وتقدير كامل لضعف الطبيعة البشرية على تخطي المحن والعقبات .. فان وجد هذا الصديق المقدر المتسامح ، ولو كان في شخص امرأة مثلي تعيش في ركن بعيد من مدينة القاهرة ، لجأنا اليه غير مترددين ، لنزيح بين يديه اعباء تثقل صدورنا ، ونطلب منه العون في علاج آلامنا واحزاننا ..

وقد مضت بي في هذه المهمة خمس سنوات ، شهدت خلالها صوراً حيوية

كثيرة ، اعتقد انها اكسبتني بعض الخبرة في شؤون المجتمع العربي عمـــوماً ، وسوف استعين بهذا القدر من الخبرة في علاج موضوع الشباب ، فاتناوله من الناحية العملية التي لمستها بنفسي ، وهدفي من ذلك ان اعطيكم صورة واقعيـــة لأحوال الشباب في مجتمعاتنا الحاضرة .

واعدد لكم مايلاقون من متاعب جسيمة تلعب اهم الادوار في تكوين شخصياتهم ، وتخلف فيها تلك الآثار الدائمة التي ننتقدها فيهم احياناً ، وقد نسينا أننا أحق منهم باللوم عليها ، لأننا الذين نصنعها لهم ، وعلينا — كهيئة اجتماعية — مسئولية عوارضها ونتائجها . ولااظنني اجانب الحق اذ اقول : ان الشباب عندنا ضحية بريئة ، لاوضاع اجتماعية خاطئة لم يكن لهم يد فيها ، ولكن الاحوال فرضتها عليهم فرضاً . واعتقد ان اسباب اخفاقنا في معالجة متاعب الشباب تعود الى اننا بعد مرحلة معينة من العمر ، ننسى اننا كنا شباباً في وقت من الاوقات ، وان العيوب التي نراها اليوم ، كانت بالامس فينا قبل ان تكون فيهم ، ومع اننا تألمنا لها في حينها ، الا اننا لم نعمل من ناحيتنا على تلافيها في الاجيـال القادمة بعدها . ولا بذلنا مجهوداً مذكوراً في تعبيد الطريق الذي تعثرنا في عبوره قبلهم ، انما تركناه على ماهو عليه ، ليتعثر في عبوره بالمثل ابناؤنا .

ولسنا نستطيع في علاج موضوع الشباب ، ان نقصر كلامنا على عهـــد الشباب من بدايته الى نهايته ، لان حياة الفرد في رأيي ، سلسلة من المراحل المتتابعة المتشابكة ، تبدأ بمولده وتنتهي بموته ، وكل مرحلة من هـذه المراحل تلعب دوراً بالغ الاهمية في تكوين المرحلة التي تليها : فالطفولة مثلا هي البداية ، وفيها تتم الانطباعات الرئيسية للشخصية ، وكذلك تنغرس البذرة الاولى للضمير والنفس والاخلاق ... ثم تأتي بعدها مرحلة المراهقة ، وهي اخطر مراحـل حياتنا كلها ، لانها فترة انتقال بالغة الاهمية ، تضع الحد الفاصل بين الخير والشر ، وتوجه الانطباعات الاولى الى ناحية الضلال او الفلاح ، حسبما عملنا على توجيهها في اولادنا عن قصد او عن غير قصد . وفي فترة المراهقـة تنمو البذرة ، ويظهر الغرس ، وتأخذ شجرة الشخصية طريقها في فضاء المجتمع مستقيمـة قوية ، او

معوجة هزيلة ، طبقاً لمقتضيات الظروف التى لابست نموها منذ البداية ، وتأتي بعد ذلك مرحلة الشباب ، التي ماهي في الواقع الامزيج من الطفولة والمراهقة ، واذا حدثت فيها تأثرات جديدة ، تكون في اغلب الاحيان فرعية توضح الرواسب المتخلفة عن المرحلتين السابقتين . اما الكهولة والشيخوخة فهما الثمرة الختامية ، لشجرة الحياة ، التي بدأت في الطفولة بذرة ، واصبحت في المراهقة نبتا ، ونمت في الشباب دوحة متعددة الفروع والاغصان .

واذا اخذنا بهذه الحقائق الثابتة ، وآمنا بأن الشباب خطوة ليست قائمة بذاتها انما بنتها خطوات سابقة ، نجد اننا نقصر في علاج متاعب الشباب اذا حصرنا تفكيرنا في مرحلة الشباب وحدها ، دون الرجوع الى ماقبلها من مراحل اخرى ساهمت في بناء هيكلها الرئيسي بعوامل قوية كان لها اثرها الفعال الدائم ... فلان نفي الشباب حقهم من البحث الصحيح ، يجب ان نعود اولاً الى طفولتهم ومراهقتهم وندارس الاطوار التي مرت بهم خلال هاتين المرحلتين ، والاحكام التي خضعوا لها ، والجو الذي احاط بهم في كل خطوة من خطواتهم . ثم نتدرج من ذلك الى مرحلة النضج ، وما يكتنفها من شئون وشجون ، وبذلك يتصل الخيط امامنا من بدايته الى نهايته ، وتسهل معرفة الحقائق سواء أكانت ترضينا ام تغضبنا .

ولكن قبل ان نفعل هذا يصح ان نسأل انفسنا : هل الشباب عندنا سعداء ، وهل الحياة التى يعيشونها ، هي الحياة الصائبة التي يجب ان تتمتع بها فئة منزلتها من مجتمعها منزلة العمود الفقري من الجسد ؟؟ وهل جهود الشباب عندنا موفقة مفيدة تكفل لبلادنا رقيا ، وتبشر بقدرتهم على بناء مستقبل افضل من الحاضر الذي نعيش فيه ؟!... هذه في رأيي اسئلة حيوية ثلاثة ، امامنا وجهان للاجابة عليها : اما ان نعمد الى المجاملة الخادعة ، فنقول : نعم ، ان شبابنا سعداء كل السعادة ، وحياتهم الحاضرة اجمل صورة لحياة الشبيبة في الامم المتقدمة ، وبناء عليه ، فالمستقبل باهر عظيم .. ونكون بهذه الاجابات قد ارضينا غرورنا على حساب الحقائق الثابتة ، وفي ذلك مضرة بالوطن ما بعدها مضرة . والوجه الثاني ان نجابه

الواقع بشجاعة وصراحة ، ونعترف بالحق الذي يعلو ولا يعلى عليه ، فنقول : لا ، ان شبابنا تعساء ، واذا كان بعضهم سعيداً ، فانها سعادة العاجز عن الاحساس بالشقاء ، وحياتهم الحاضرة ليست على ما ينبغي ان تكون في امة متقدمة ، اذ تنقصها العوامل الرئيسية التي تجعل منها حياة مجزية لهم ومفيدة لغيرهم ، وانه اذا بقيت الاحوال على هذا المنوال ، فالامل ضئيل في مستقبل افضل .

وقد يعن لنا ان نسأل انفسنا مرة ثانية ، عن ما يحدو بنا الى تقرير هذه الحقيقة الخطيرة ، وما اهم العوارض التي تؤكدها او تشير اليها ... فلان نجيب جواباً صحيحاً ، ليس علينا الا ان نتلفت حولنا ، لنرى الاخطاء الظاهرة في هيكل الشخصية الاجتماعية العربية على العموم ، فمن المؤكد ان عيوب الشباب هي عيوب الكبار والصغار على السواء ، وكل خطأ فيهم ، وجد فينا ، ومازال يوجد الى اليوم . تضاف الى ذلك عوامل استجدت مع تطورات زمنهم ، فتركت في شبابنا آثاراً جديدة ، واذا كان مثلها لا يظهر في الكبار ، فليس الفضل في ذلك للكبار ، انما الفضل كل الفضل لاوقاتهم التي اسعدها الحظ بنصيب اصغر من المتاعب والآلام ، فخلت حياتهم من بعض المحن التي تعقد للشباب حياتهم الاجتماعية الحاضرة . وهكذا تتساوى عيوب الشباب والشيوخ ، ولكن احوال الشباب تبدو لنا اوضح من احوال غيرهم ، لانهم ابرز طوائف الشعب امامنا ، ولانهم المحور الحقيقي لحياتنا الراهنة ، ولانهم الذخر الذي تدخره الايام لمستقبلنا القريب والبعيد .. ولاننا — فوق كل هذا — نمر في العالم العربي بفترة وهي قوية تشعرنا بشدة احتياجنا الى حياة افضل ، هم وحدهم القادرون على بنائها ، مما يحصر انظارنا فيهم دون غيرهم ، فتبرز لنا اخطاؤهم اكثر مما تبرز لنا اخطاء فئات الشعب الاخرى .

وفي ضوء هذه الحقائق الثابتة ، نستطيع ان نقول : ان اخطاء الشباب هي بذاتها اخطاء الشخصية الاجتماعية العربية على العموم ، وأبرزها الحيرة المستبدة بنفوسهم ، فهم لا يعرفون ما يريدون ، ولا ماذا يفعلون ، او الى اين يسيرون ، معظم

اهدافهم مختلفة متشابكة ليس لها اتجاه واضح ، ولا دائرة معلومة تتركز فيها ، فليس غريباً والامر كذلك ان يخفقوا في بلوغ الغاية الجديرة بهم ، والكفيلة بارضائهم وليس غريباً ايضاً ان يقلقهم الاخفاق في بلوغ المراد رغم رغبتهم الملحة في التوفيق ، فيشيع التذمر في صدورهم ، ويظهر لنا في صور شتى نفسرها احياناً بالجموح ، واحياناً اخرى بالجحود .. والعلة في ذلك ان مجتمعاتهم لم تسلحهم بالقوى المعنوية الضرورية في بناء كيان المواطن الصالح ، والتي يستطيع الفرد بها ان يجابه الصعاب ، ويتخطى العقبات ، ويحس بانه على صغر سنه وبساطة شأنه ، جزء لا يتجزأ من الوطن الذي يعيش فيه ، او حجرة رئيسية في بناء صرح المجتمع ، اذا اصابها اختلال ولو قليلا اختل به الهيكل العام .

ولاشك ان حرمان شبابنا من هذه الذخيرة المعنوية الثمينة ، قد افقدهم الثقة بأنفسهم واضعف طاقتهم على الكفاح العصيب المرير ، وجعلهم يؤمنون — في قرارة عقلهم الباطن — بأن لاسلاح لهم الا الشهادة المدرسية ، فتعلقوا بها بكل مافي نفوسهم من ايمان ، ولكنها خذلتهم بدورها ، ولم تشعرهم بفائدتها الملموسة ، واثبتت لهم التجارب انها اضعف من ان تعينهم على الحياة الكريمة التي يبتغونها ، فكانت صدمة نفسية شديدة فعلتها الحياة العملية ، التي رأوا لها وجهين ، احدهما الوظيفة الحكومية بنظامها الرتيب ، وافقها المحدود ، مع سهولة اداء واجباتها في مقابل راتب منتظم معلوم .. والوجه الثاني الاعمال الحرة التي ضاقت بهم ، لكثرة ما تتطلبه من كفاح لم يعدهم المجتمع له ، ولم يعودهم عليه ، ولم يلقنهم اصوله لابصورة تربوية ، ولابصورة علمية ... ولا اظننا نتخطى الحق اذ نقول : ان كثيرين وكثيرات نجحوا في ميادين العمل الحر ، ولكن الفضل في نجاحهم لايعود الى تعاليم المجتمع الذي تعهدهم من الصغر ، انما كان الفضل لمواهب استثنائية في هؤلاء الافراد ، واستعداد طبيعي من عند الله ، ومثلهم كانوا ينجحون في الكفاح من اجل الرزق ، ولو لم يتعلموا في المدارس على الاطلاق . والنفس كالشاشة البيضاء تظهر عليها ابسط البقع والآثار ، فليس مستغرباً — والامر كذلك — ان تترك الصدمات المتتالية في هيكل الشخصية الاجتماعية عيباً جديداً

هو ضعف روح المسئولية ، فهانت القوانين ، وقل احترام الناس لها في العلانية والخفاء ، واصبح الفرد يفعل مايشاء ، تاركا لغيره مهمة فعل الصواب . ولسنا نستطيع ان نلومه على ذلك ، ما دمنا قد قصرنا في توثيق الروابط بين المواطن وبين مجتمعه ، بما يشعره بأنه وحدة رئيسية فيه ، وان قوانينه امانة في عنقه عليه ان يرعاها في نفسه ، قبل ان يرعاها في غيره .

وكان الاعداد السيء والتعليم المعوج ، سبباً جوهرياً في جهل الشباب بفنون الاستفادة بالوقت ، فأساءوا عن غير قصد استغلال اوقات الفراغ ، واصبحت هذه الاوقات على مضي الزمن عدواً وطنياً لدوداً ، يمد المجتمعات العربية بالمساوىء لا الحسنات . فاذا اضفنا ذلك الى اهمال اولى الامر في نشر التربية الدينية السمحة التي تنظم حياة الفرد ، وتغذي فيه الوازع النفسي ، ثم الفساد الخلقي الذي تسرب الينا في سعينا الى تقليد المدنيات الاجنبية في احقر مظاهرها دون أثمن جواهرها .. استبان لنا العيب الاكبر الذي نعانيه جميعاً على مختلف اعمارنا وطبقاتنا ، الا وهو ضعف المبادىء الخلقية ، وانهيار قوة المقاومة لاغراء الفساد ، وماترتب على ذلك من اندماجنا فيما لايليق بنا ان نندمج فيه كأمة ناهضة تريد ان تعيد صرح مجدها على اسس قوية لاتهزها النوائب والاحداث . والملذات مقتلة لعناصر الخير ، واهم هذه العناصر المبادىء الكريمة التي يجب ان يلوذ بها المواطن الصالح في مختلف اطوار عمره ، والتي تعتبر في حياة الانسان نبراساً يبدد بنوره ظلمات المحن والصعاب ، وهما — اي المحن والصعاب — جزء لايتجزأ من نظام الكون وسنة الوجود ... واحياناً تضعف المبادىء الخلقية ، ويبقى احترام الناس لها كمبادىء عامة نبيلة ، ولكن مرحلة التطور التي تمر بلادنا بها ، وهي في حد ذاتها مرحلة خطيرة لها عيوبها الجسيمة ، تفاعلت مع الاوضاع الاجتماعية المختلة ، والامثلة السيئة التي ضربها الكبار للصغار ، فكانت النتيجة ان ضعف احترامنا للمبادىء الكريمة عموماً ، واصبحنا نجد في الصدق والامانة والفقر والاخلاص ، دلائل العجز ، اسلحة الضعف .

ولست استطيع ان اقف بمآخذنا الاجتماعية عند هذا الحد ، فهنـاك نقطة اخرى لابد من ذكرها ، لانها فيما اعتقد ، لعبت دوراً هاماً في تحويـل نفسيـة الشباب ، وساهمت الى حد كبير في مضاعفة حيرتهم وبلبلة اذهانهم ، وهي الزعامة الشعبية ، ومامرت به خلال السنوات العشر الماضية : فقد كان الشباب يعيشون على ايمانهم بمن امسكوا قيادهم ، وكانوا يرفعونهم الى السماء باعتبارهم اخياراً ، وكانوا يثقون بما يقولون لهم ويفعلون بهم ، ويخضعون مغتبطين لما يطلبون منهم ويحكمون به عليهم . وكانوا يعتقدون عن ثقة ان قسوة الحياة ظرف طارىء ، سوف يتغلب عليه الكبار في يوم قريب ، ولن يطول الزمن حتى تصبح البـلاد على ايديهم جنة وارفة الظلال . وكان الايمان بالقادة عاملا من عوامل استقرار الشخصية العربية الاجتماعية ، وارتكاز امانيها واحلامها الى مبادىء قوية ، وتحفيز الهمم الى الاقتداء بالكبار في اداء الخـير وتحقيق الصالح العام ... ثم تطورت الاحوال ، فاذا بالستر ينكشف عن امور مؤسفـة محزنة ، ضيعت جمال الزعامة وانزلتها عن برجها العاجي السامي ، الى مستوى الاخطاء البشرية الدارجـة ، وتلفت ابناؤنا حولهم ، ليجدوا ان مثلهم العليا قد انهارت من عليائها ، وتحطمت الاوثان بين يوم وليلة ، ولم يبق منها غير اجزاء متناثرة تذكر الناس بما اصـاب ايمانهم في صميمه ... ولا شك ان انهيار المثل العليا بهذه الصورة ، كان له اشد الوقع في نفوس الشباب ، فتحول شعورهم الى مايشبه اليـأس المرير ، مما افقـدهم الثقـة في كل كائن بشري كبير ، فلعنوا الماضي الذي ضيعوه عـبثاً في عبادة لا محل لها ، وكرهوا الحاضر باخطائه الجسيمـة الظاهرة ، وضاعت آمالهم في امكان بناء مستقبل افضل . واصبحوا في رأيي يعيشون في شقاء حسي مقيم ، لاماض يؤنسهم ، ولاحاضر يرضيهم ، ولامستقبل يستبشرون بقدومـه ، وهذه من غير شك حالة محزنة جداً ، اقل مايقال في وصفها انها مرحلة انفصـال شعوري عن كل مايجعل للحياة هدفاً ومعنى ولذة .

ولكن العجيب حقاً ان هذه العوامل الضارة ، الـتي احاطت بحيـاة الشبيبة في بلادنا ، فأصابت الشخصية الاجتماعية العربية بأضرار بليغة ، لم تستطع

على قوتها وجبروتها ، ان تقتلع شجرة الخير من جذورها ، فظلت ذخيرة الخير موفورة في نفوسهم ، وان كانت قد حجبتها عن نظرنا وحسنا ، طبقة ظاهرة من الصدأ الذي تخلف عن احكام المجتمع واوضاعه ، والادلة على صدق هذا الكلام كثيرة ، ومن السهل علينا ان نتلمسها في تاريخنا القريب والبعيد . فان ابناءنا الذين رأيناهم يتخبطون فيما اخذناه عليهم من حيرة ويأس واستهانة بالمثل والنظم ، والذين شهدنا لهم صوراً متتالية من الجموح والتمرد ... هؤلاء انفسهم لم يتوانوا عن الظهور في اكرم مظهر واعظمه عندما حانت الساعة ، ونودي بهم ان قوموا الى الجهاد من اجل الوطن ، واهم من هذا وذاك ، عندما احسوا وآمنوا بأن هذا النداء كان ينطوي في صميمه على اسمى المعاني الوطنية القائمـــة على اسلم مبادىء الاخلاص والتضحية والامانة . وحتى اذا كان اصحاب النداء لا يمثلون الاخيار في اعتقادهم ، ولا يتفقون معهم في مذاهبهم السياسية ، الا ان المبدأ في حد ذاته اثمن الف مرة من ان يهمل من اجل الاشخاص او الاحزاب .. ورأيناهم — والله — يخرجون فجأة عن ثوب اللين والدعة ، ليبهروا انظارنا ببسالة الاسود ، وشجاعة الابطال ، وحزم المؤمنين بوجوب التضحية الى ابعد حدود التضحية . وشهدنا والفخر يملأ صدورنا ، كيف قدموا قضايا الوطن على اعتبار آخر ، وكيف هانت حياتهم في سبيل استرداد الارض الطيبة التي انبتتهم ، وكيف فتحوا صدورهم على سعتها لرصاص اعدائهم ، وكيف لفظوا انفاسهم هاتفين لبلادهم بالعزة والمجد .

عودوا معي الى مافعله الشباب السوري في قتاله مع الفرنسيين من اجل الحرية ، والى مافعله الشباب العراقي في جهاده ضد المعاهدة رمز الاستعمار والى مافعله اللبنانيون لتحقيق الاستقلال ثم تغيير الحاكم منذ عهد قريب ... والى مافعله المصريون في خلال ثورة ١٩١٩ ثم في منطقة القنال منذ عام .. وتدارسوا معي مافعله شباب العرب مجتمعين في حرب فلسطين ، وكيف سفكوا دماءهم فرحين بأمل اعادة أرض العرب للعرب .. وتذاكروا معي آيات الشجاعة التي لم يعتورها

غرض أو صالح خاص ، تجدون ان ابناءنا رغم ما اسأنا به اليهم ، واصبنام به ، أثبتوا وقت اللزوم انهم اكرم الرجال .. وقد يدهشكم ان اقفز بكلامي من احداث سياسية معينة الى احداث سياسية معينة ، واهمل مابين هذه الاحداث وتلك ، ولكني فعلت ذلك متعمدة ، لأن الذي اهملته كان في رأيي فورات حزبية غذتها روح التذمر الشائعة في نفوس العرب عموماً .. أما المعالم التي تتبعتها ، فقد تركزت فيها الاهداف الوطنية المتسامية عن كل اتجاه حزبي ، وفيها كان ابناؤنا الشباب ارفع مثل للتضحية بالحياة ، التي هي أثمن ما يمتلك الانسان .. وقد بلغوا في تساميهم درجة اضطر معها اعداؤهم الى الاعتراف بسالتهم ، والايمان برغبتهم المفرطة في بلوغ الحرية ، حتى اذا كان ثمنها الموت والاستشهاد ..

وربما يروق لنا ان نسأل انفسنا عن المعاني الكامنة في ظهور المبادىء السامية فجأة وعند اللزوم ، او نبعث فيما وراء الحقائق في قدرة هؤلاء الشباب على نقض شخصيتين متناقضتين كل التناقض ، احداهما تظهر في ايام السرعة والهدوء والاخرى تبرز في وقت الشدائد ، وتفسير ذلك انهم خلقوا من معدن كريم اصيل ، وان جوهرهم رغم ماتركته الاحداث منهم كان اقوى من ان يتلاشى بفعل احكام المجتمع واوضاعه ، وان طريقتهم على تذوق الخير والانتصار له ، لم تضعف ، وان كانت الظواهر قد اشارت الى غير هذا ..

ولا احب ان تظنوني اجامل احداً اذ اقول : ان هذا المعدن الاصيل ذخيرة تحسدنا عليها امم غيرنا ، لو انها مرت بما مررنا به ، لانصهرت فيها المادة الثمينة ، ثم تبخرت عن آخرها . وشعوب تملك هذه الثروة المعنوية الدفينة ، ليس من السهل ان يغلب على امرها ، او ينتهي بها الحال الى الاستقرار في ذيل الركب المدني العالمي .

وبهذا الاعتراف الصريح ، تعرض لنا اسئلة جديدة ، وهي انه اذا كان الشباب قد صنعوا حقيقة من هذا المعدن الاصيل الثمين ، فكيف اصابهم ماأصابهم ، ولماذا علقت الشوائب بهم ، ولاي سبب تغطى الجوهر الطيب بقشرة غير مستحبة؟؟

واعود في الاجابة على هذه الاسئلة الى ما سبق ان قلته في بداية هذه الكلمة من ان عيوب اولادنا من صنعنا ، ونحن الذين طبعناهم بطابعها ، لانها كانت فينا قبل ان تكون فيهم .... ومع ان هذه العيوب كانت سبباً رئيسياً في شقائنا ، الا اننا تركناها لهم على ماهي عليه ، ولم نسع الى تعبيد الطريق الذي تعثرنا في عبوره في ايامنا .. واكرر مرة اخرى : ان الشباب ضحية بريئة لاوضاع اجتماعية خاطئة ، وتعود اسباب اخفاقنا في علاج مشكلاتهم الى اننا بعد مرحلة معينة من العمر ، ننسى اننا كنا صغاراً في وقت من الاوقات ، وبذلك تتلاشى من اذهاننا سقطات الصغر ونواحي الضعف الطبيعية في المراحل الاولى من حياة الانسان .. وقد سبق ان ذكرت لحضراتكم اننا لانستطيع ان نفي مرحلة الشباب حقها من الدرس والفحص ، ما لم نرجع الى المرحلتين السابقتين لها ، ونتوغل في بعض احوالها ، لانها الخطوتان الرئيسيتان في بناء الشخصية الاجتماعيـــة ، وعليها يتوقف جزء عظيم من استقرار مرحلة النضج .

ومادمنا قد اتفقنا على ان الطفولة هي البداية ، وفيها تنغرس بذرة الشخصية والاتجاهات ، فدعونا نستعرض احوال طفولتنا ، ونتناقش في نوع الرعاية التي نالها في خلالها ، لنرى اذا كانت هذه او تلك ، كفيلة بتنشئتنا على مايجب ان ننشأ عليه ، او كافية لبناء شخصية اجتماعية خالية من العيوب والشوائب . ولا اظن احداً يعارضني اذا قلت : اننا لم نستمتع بطفولتنا كما ينبغي ان نستمتع بها ، وان تسعاً وتسعين في المائة منا ، مضت بهم هذه المرحلة الرئيسية في غير الطريق الذي يجب ان تمضي فيه ، وذلك لان المبادىء التربوية التي طبقت علينا كانت مختلفة من اساسها .

وكان آباؤنا — ومازال الآباء كذلك الى اليوم فريقين لاثالث لهما احدهما يبالغ في تدليل اطفاله باعتبارها اسهل وسيلة لاسعادهم ، فيمنحونهم من الحرية اكثر مما يلزم ، ويقصرون في رد اخطائهم ، ويغمرونهم بالرخاء ماوسعهم ، وبذلك يقتلون فيهم قوة التمييز بين الخير والشر ، ويبثون في نفوسهم روح الانانية ، وما

يترتب عليها من استهانة بالصالح العام في سبيل تحقيق الصالح الخاص ، ويعودونهم على الاستهتار بالقوانين ، التي لم يتعلموا في يوم من الايام احترامها او الخضوع لها مع ان القوانين في كل عرف متمدين ، هي ضابط رئيسي لحياة الانسان ، وطاقة الفرد على احترامها في السر والعلانية ، مادة هامة في صنع المواطن الصالح . ولان اولادنا المدللين قد تعودوا ان يأخذوا كل شيء بلا مقابل ينشأون على الرغبة في الحصول على ما يريدون بلا ثمن ، او بأقل ثمن ممكن ، وهذا عيب جوهري في صميم شخصيتنا الاجتماعية . وهؤلاء الآباء الذين جعلوا أصول التربية السليمة ، افسدوا — من غير شك — حياة ابنائهم ، واضروا بشخصيتهم وأهليتهم من حيث ارادوا لهم الخير كل الخير .

ولكن هذا الفريق من الآباء اقلية في مجتمعنا ، والاغلبية الساحقة من النوع الثاني ، اي الذين يحرمون اولادهم فرصة الاستمتاع بالطفولة ، وذلك بأن يفرضوا عليهم من البداية ان يتصرفوا تصرف الكبار العقلاء ، فلا يعبثون ولا يضحكون ولا يأتون سخافات بريئة من التي لاغنى للطفولة عنها ، والتي يعتبرها العلم ، جزءاً لا يتجزأ من جمال المرحلة الاولى وسذاجتها ... وهؤلاء الآباء يذهبون في حرصهم على تربية اولادهم الى حد تحطيم شخصيتهم عند اول غلطة تبدر منهم ، فمثلا يضربونهم ضرباً موجعاً اذا قصروا في اداء واجب من واجباتهم او يتهمونهم بالكذب ، اذا اغراهم خيال الطفولة الخصيب بتأليف قصة غير واقعية او يتعتونهم بالصوصية اذا امتدت ايديهم الى مالا يخصهم . والنتيجة الطبيعية لهذه التربية العقيمة ، ان تتحطم كرامة الطفل ، وتنهار كبرياؤه ، ويعتاد الذلة والمهانة ويشب على الصفات المرذولة التي اتهم بها في اول حياته ... وقد يخاف الآباء على ابنائهم شر اختلاطهم بغيرهم ، فيبعدونهم عن الحوادث والاصدقاء ، وبذلك يحرمونهم فرصة استقاء المعرفة عن طريق التجربة ، فيخرجون الى المجتمع بعد ذلك لاحول لهم ولاقوة ، تلعب بهم الاقدار كما تشاء ، ويهزمهم اغراء الشر في اول جولة .

وينظر الاهل الى اولادهم نظرة الاطفال دائماً ، ولا يثقون في قدرتهم على اداء واجباتهم بأنفسهم ، فيقومون عنهم بهذه الواجبات ، وقد يصل بهم الامر الى ان يفكروا لهم بعقولهم ، وينظروا لهم بعيونهم ، ويتعهدون بحل مشكلاتهم كبيرة كانت أم صغيرة ، وبذلك يقتلون فيهم روح الاعتماد على النفس ، ويصبغونهم بصبغة الضعف والعجز ، فاذا حانت الساعة ، خرج اولادنا الى معركة الحياة . وقد اعوزتهم القوة على مصارعة المشقات ، واحسوا بعجزهم عن اثبات وجودهم ، وتطلبوا من يعبر بهم بحر الصعاب الى شاطىء الاستقرار والامن .

والعجيب حقاً ان هذين الفريقين من الآباء والامهات ، يختلفون تمام الاختلاف في وسائل التربية ، ولكنهم يتفقون دائماً في نقطة واحدة ، هي فرض هيبتهم على اولادهم ، وتدعيم اسباب التكلف في علاقاتهم بأبنائهم ، الذين هم اقرب الناس اليهم ، والنتيجة بالطبع ان يتباعد الجيلان في الاصول ، وان تقارب في الفروع ، وتنعدم الصداقة بين الصغار والكبار ، بما يجعل ابناءنا يخافوننا اكثر مما يحبوننا ، فيحتفظون لانفسهم بأخطائهم واسرارهم وسقطاتهم ، ولا ينشدون منا العون في التخلص من مآزقهم ، وبذلك يتنكبون طريق الصواب ، ونحن بكبريائنا النافهة في شغل شاغل عن آلامهم واشجانهم .

ولست اقول : ان تدارك هذا النقص الاجتماعي يكون سهلا ، بغير انتشار الثقافة في عموم الشعب ، مع عناية الدولة بتعليم اصول التربية في المدارس والجامعات ، حتى يرتشف اباؤنا من مناهلها العذبة ، فاذا حان وقتهم واصبحوا بدورهم آباء اتقوا الله في ابنائهم ، اكثر مما اتقاه آباؤهم فيهم .

وتتخرج جميعاً في مدرسة الطفولة العامرة بالمحن والاحزان ، لتقتحم مدرسة اخرى اقسى منها وأمر ، وهي مرحلة المراهقة التي تبدأ الغرائز خلالها في الظهور ، وتتفاعل الاحاسيس والمشاعر تفاعلا خطيراً ، يقتضي منتهى العناية والاهتمام . ومن الاعراض الطبيعية لهذه الفترة ، الجموح في الاخلاق ، والفردية

في الشخصية ، وعبادة البطولة انما وجدت ، وكيفما كانت ،مع الرغبة في فرض الرأي الخاص ، والمبالغة في تقدير الكرامة عن طريق الحس الذي ترهفه المراهقة باحكامها ودواعيها .

والمفروض علينا كآباء وأمهات ، ان نعرف ذلك كله ونقدره ، فننمي في اولادنا المراهقين الشعور بالعزة والكرامة دون مبالغة ، ونهدىء من حدة طبعهم بلا تحقير او اهانة ، ونحفظ لهم هيكل شخصيتهم بمميزاته الخاصة ، سليما من الاضرار التي قد تصيبه بتأثير الانفعالات الشديدة التي قد يوجدها ضغطنا الشديد على المراهقين من ابنائنا . ولا يمكن لاحد ان يحسن رعاية المراهق ، ما لم يعترف اولاً بقوة الغرائز ، وما لم يعمل على ترويضها في اولاده بوسائل الترويض السليمة ، كأن يفتح امامهم آفاقاً واسعة يستطيعون فيها ان يفرغوا قوتهم وحيويتهم ، وان يشغل اوقاتهم واذهانهم بما يستنفد نشاط اجسامهم ، ويملأ رءوسهم باللذة الثقافية والعلمية المفيدة لهم والمحببة الى نفوسهم في ذات الوقت ، حتى تضيق بهم الفرص عن التفكير في الغريزة والاحتياج اليها .

والمفروض فينا كآباء وامهات عقلاء ، ان نسلم باخطاء المراهقة ، ونوسع لها صدورنا ، ونقابلها بالتسامح والفهم ، مع توافرنا على علاجها بكياسة تخرج بأولادنا من المحنة سالمين . ولكن العقلية السائدة تتنافض مع هذه المبادىء التربية الاولى ، فنحن نقابل جموح المراهقين بالاهانة ، ونقسو في عقابهم على سقطاتهم من غير ان نوفر لهم سبل العلاج والخلاص . وابغض شيء إلى نفوسنا ان نعترف بالغرائز ونواجهها ، ولذلك نجد اننا نتلافى الاحتكاك بها ماوسعنا ، ونهمل في التربية الجنسية الضرورية في هذه المرحلة ، ومن هنا ينشأ اولادنا ، وهم اجهل مايكون بشئون الحياة الصحيحة ، وقد مرت بي صور كثيرة لمثل هذه الاوضاع استطيع معها ان اؤكد لحضراتكم ان معظم من يخطئون من ابنائنا الذكور ، يبدأون بدافع رغبتهم في ثبر غور اسرار الحياة التي ابى اهلهم ان يوجهوهم فيها ، او يبعدوا عنها اذهان اولادهم بأوجه النشاط المفيدة الطيبة ... وكذلك بناتنا ، فمعظم

من يخطئن منهن ، يفعلن الخطأ في بدايته عن جهل مطبق بحقيقة الاخطاء ومواطنها .

وبانتهاء هذه المرحلة العامرة بالمعارك النفسية والحسية ، يصبح اولادنا شبابا فيدخلون الجامعات يطلبون فيها من العلم ومايعدهم لخوض معترك الحياة وتكون نفوسهم رغم ماصابها ، قد هدأت الى آمال واسعة يرجون تحقيقها في يوم من الايام ، فاذا بهذه المرحلة تخذلهم في صميم امانيهم بها ، لان برامج التعليم قد وضعت بحيث تصنع منهم موظفين آمالهم ضيقة ، وارزاقهم محدودة ، وعملهم رتيب ممل ، لايغري بالكفاح ، ولايحفز الى التسابق والتنافس ، وتمتلىء قلوب اولادنا بالمرارة ، وتزيد هذه المرارة ، وتنحو نحواً خطراً ، عندما يجابهون الحياة العملية ، فيجدون ان رواتبهم الصغيرة لاتتكافأ مع مستوى غلاء المعيشة ، ولاتوفر لهم الضرورات التي يشعرون بمسيس الحاجة اليها ... ثم يصطدمون في عملهم بالرئاسة وما جبل عليه اصحابها من استهانة بالموظف المبتدىء ، وميل عجيب الى تحطيم حماسته ، والحد من نشاطه ، ليصبح كمن سبقه الى العمل الحكومي ، آلة تسير بقوة الدفع فقط ... فاذا اضفنا هذا كله الى دور الزعامة ، وما فعلته بالمتطلعين اليها كآخر وسيلة الى تحقيق حياة افضل ، أمكننا ان نقدر ما اصاب ابناءنا الشباب نتيجة الاخطاء والصدمات الاجتماعية المتتالية ، ولانصح ان نلومهم على ماصابهم ، فليس اضر بالنفس من خيبة الأمل ، وضياع الثقة في الحاضر والمستقبل معاً .

هذه — ياخواني — صورة لمراتب الحياة التي نمر بها ، وفيها ترون الادلة القاطعة على اننا نفسد احوال ابنائنا بانفسنا ، ونفرض عليهم الاخطاء التي نؤاخذهم عليها ، فكأننا المسئولون اولاً واخيراً ، وكأننا السابقون الى العيوب ، وهم اللاحقون بنا فيها ، فلا غرابة اذا كنت قد قلت لكم اكثر من مرة ، ان الشباب عندنا ضحية بريئة ، لاوضاع اجتماعية خاطئة صنعناها لهم ، ثم كبلناهم بقيودها .

ومن العبث ان ننكر ما كان للتطورات الجديدة في حياتنا السياسية العربية من اثر بالغ في انعاش روح الشباب ، وبث عوامل التفاؤل في قلوبهم واذهانهم ، واعتقد انكم تتفقون معي ، على ان الامور بلغت قبل التطورات المذكورة ، حداً من السوء لم يرد له مثل في تاريخنا الطويل ، فانتشرت عوامل الشر في كل ركن من اركان حياتنا السياسية والاجتماعية والادبية ، حتى لم يبق فينا مكان ولو صغيراً ، يستطيع الخير ان يلوذ به . وشهدنا على مر السنوات العشرين الاخيرة كيف اصبح السوء مورداً للجاه والثراء والنعم الجزيلة ، وكيف تضاءلت العفة وبطل سحرها ، فلم يعد في مقدورها ان تتيح للفرد منا ، سبباً من اسباب الحياة الكريمة ، وايام هذه السيئات التي توالت علينا جيلا بعد جيل ، وسنة بعد سنة ، لم يكن مستغربا ان تنهار البقية الباقية من ايماننا بالمبادىء الطيبة ، وتضيع ثقتنا في فوائد المثل العليا ، وان تضطر الاوضاع كثيرين منا الى الاستقاء من نهر الجنون ، كغيرهم من الناس ..

ثم شاءت العناية الالهية ان تضع حداً لاختلاط امورنا ، فقامت في البلاد العربية سلسلة من الحركات السياسية المفاجئة ، كان المقصود بها انقاذ اوطاننا مما اصابها ، وكانت اهدافها اعادة بناء دولنا على اسس جديدة تليق بأمم ناهضة تريد ان تساير ركب الحضارة والتقدم .. وقد بدأت هذه الحركات بسوريا فمصر فلبنان فالعراق ، ولكنها اتخذت في كل بلد من هذه البلاد طابعاً مميزاً خاصاً ، وان اتحدت اغراضها وتركزت في تحقيق الخير ..

وقد نجحت هذه الانقلابات بأسهل وأسرع مما كان ينتظر القائمون بها ، ووقف الشباب معها قلباً وقالباً ، مما يدل على انها كانت تنطق بالرغبات الكامنة في نفوسهم ، أو كانت بعبارة اوضح تعبيراً عملياً عن تقديرهم للخير ، ورغبتهم في استرداده .. ولست اعلم كثيراً عن ماحدث في العراق ، عندما وكل الى قائد جيشه برئاسة الوزارة ، ولكني اعلم ان الحركتين السورية واللبنانية استهدفتا اخراج عناصر الفساد ، ومقاومة الاستفادة والاستغلال ، واعادة تنظيم الاداة الحكومية

على اسس قويمة راسخة .. وقد حسنت الحياة بهذه الخطوات .. فاتسعت الحريات للنساء والرجال على السواء ، وكثرت المشروعات الاصلاحية ، وانتشر التعليم بما يبشر بخير قادم عميم .. وكذلك حدث في مصر ، فان الحركة الاخيرة عملت بدورها على تنظيم البلاد بوسائل مختلفة ، اهمها القضاء على الاستبداد والاقطاع ، وتطهير الاداة الحكومية من المستغلين والمستضعفين ، واعادة توزيع الثروة على اسس عادلة مع نهضة شاملة في النواحي الزراعية والاقتصادية .

ولسنا نشك في ان هذه الحركات انعشت المبادئ الكريمة ، وقررت المثل العليا ، واعادت الينا ثقتنا بحاضرنا ومستقبلنا معاً ، وبذلك مهدت الطريق الى المعجزة التي كنا نتمنى ان تحدث في الشخصية الاجتماعية العربية ، ولكن لايصح ان نتوقع حدوث هذه المعجزة بين يوم وليلة ، وذلك لان الفساد السابق كان قد تغلغل أجيالاً متعاقبة ، وترك آثاراً عميقة لابد من وقت مذكور لاقتلاعها من جذورها في حين الحركات السياسية قامت في بحر السنوات القليلة الاخيرة ولم يمض بها الوقت الكافي بعد ، لتتأصل مبادئها في النفوس ، ويحل فضلها العميم محل الرواسب المتخلفة عن الماضي الطويل ، فالخير كالشر تماماً لابد له من وقت مذكور ، حتى يصبح جزءاً لايتجزأ من طبيعة الكيان البشري ويغدو محوراً للمبادئ السامية التي يجب ان تدور حولها حياة الفرد الاجتماعية ..

وأنا واثقة من اننا سائرون الى الخير كل الخير ، وما دامت الامور تلزم مجاريها المستقيمة ، فلن يلبث الماضي ان ينحسر عن العروبة بآثاره البغيضة فنرى في شباب العرب ملامح نره في انفسنا ، ونشهد من آيات حياتهم المفيدة ، مايجعلنا نفخر بهم ، ونأسف لاننا لم نحظ بمثل فرصهم .. وبفضل نقاوة المعدن الشعبي الاصيل ، سيكون في مقدور شبابنا ان يخرجوا بكيان بلادهم سليما ، وان يتقدموا بعروبتهم العزيزة الى الصدارة انشاء الله ، وبذلك تتحقق لهم العزة والكرامة والقوة ، التي كان آباؤهم يعتقدون ان تحقيقها ضرب من المستحيل .

ولكن هذا ليس كل شئ ، فان الوعي الحاضر ، والاتجاهات الطيبة ،

والفرص الجديدة المتوافرة لاتكفي وحدها لسرعة تغيير احوال الشبيبة عندنا ، وعلى حكوماتنا ان تتقدم الى المساهمة بصور جدية حازمة ، فمالاشك فيه ان بلادنا لم تضع الى الآن برامج قومية واضحة ، تقرر السياسة الدائمة التي يجب ان نتبعها ، وتحدد الاهداف الاصلاحية التي تلبي مطالب شعوبنا ، واقرر بصراحة ان افتقارنا الى هذا البرنامج الاجتماعي ، كان ومازال عاملا رئيسياً في ترددنا بين مختلف المشاريع والآراء ، ذلك التردد الذي عطل النهضة ، رغم توافر حسن الرغبة في الحاكمين والمحكومين على السواء .. واعتقد عن يقين اننا نستفيد استفادة عظيمة ، ونوفر مشقات كثيرة ، أذا وضعنا هذه البرامج الاجتماعية ، التي ترسم لنا خرائط الحياة الدائمة في بلادنا ..

ولا اظن ان عربياً مخلصاً يعارضني فيما اقول ، فأن وضع البرامج الثابتة يعتبر في دستور الاصلاح السليم ، خطوة اولى ، لابد من ان تتم على اكمل وجه ، قبل ان تتلوها خطوات اخرى من اى نوع كان .. هذا الى مايترتب على وضع البرامج من احساس بالاستقرار ، وارتكاز قوانا الفكرية الى تنفيذ اتفق الرأي الصائب على شدة احتياجنا اليه .. ولكني احب ان يكون معلوماً لنا جميعاً ان مهمة وضع هذه البرامج ليست من شأن الشباب ، انما هي مهمة القادة والمفكرين والكبار ، لان الطبيعة اعدت الشباب ليكونوا جنوداً لاقادة .. فالشباب كما حدده العلم ، يبدأ بالسادسة عشرة ، وينتهي بالرابعة والعشرين ، اي ينتهي ببداية مرحلة الرجولة الناضجة ، والمعروف ان لهذه المرحلة ميزات وخصائص أهمها الحماسة والاندفاع والشجاعة والاستهانة بالاخطار .. أما عمق التفكير وحكمة الرأي ورجاحة الفكرة ، فمن اختصاص ومراحل العمر الاخرى ، ولا غضاضة في ذلك ، فأن احكام الحياة تميز طبقات الناس بعضها عن بعض ، واذا كانت قد خصت الرجولة والكهولة والشيخوخة بالحنكة والخبرة والتجربة ، فقد حرمتها في مقابل ذلك من الميزات المادية والمعنوية التي تحلي الشباب ، وتجعله زهرة العمر ..

ومن واجب القادة والمفكرين في هذه الآونة الخطيرة التي تمر بحياة

العرب اجمعين ، ان يعينوا الشباب على معرفة وضعهم الحقيقي ، ويبينوا لهم حدود الادوار المطلوبة منهم ، ثم يوقفوهم عندها في حزم ونظام . وتكون خدمة اجتماعية جليلة اذا توفر اصحاب الرأي على وضع البرامج المطلوبة ، ثم هتفوا بأخوانهم الشباب قائلين : انتم جنود الوطن ، وسواعده القوية ، ونحن قلوبه المخلصة ورؤوسه المفكرة ، ولقد رسمنا لكم الحياة اللائقة بكم ، وراعينا فيها خيركم ونفعكم ، فتسلموها منا أمانة تحملونها في اعناقكم ، واعملوا ما في وسعكم على حفظها وتحقيق اهدافها ..

ونستفيد ايضاً فوائد جزيلة اذا روضنا انفسنا على مجابهة الواقع ، لنسير بحياتنا في هدى الحقائق الملموسة ، والحقائق الملموسة تقول بصريح العبارة ان نساء الماضي ، أضر بهيكل الشخصية الاجتماعية العربية ، واصاب الشباب بما لم نكن نريد ان يصابوا به .. فكان ابرز ما نأخذه فيهم ضعف روح المسؤولية ، ولان نكون دولاً قوية يجب ان نبدأ بتقوية هذه الروح في اولادنا ، حتى نقربهم الى اوطانهم ، فيحس كل واحد منهم انه جزء هام في الهيكل الوطني العام .. وروح المسؤولية ليست صفة غريزية تولد مع الانسان ، انما هي صفة مكتسبة يأخذها عن البيئة التي يقضي فيها مراحل الانطباعات الاولى من عمره ..والانسان لايكون مسئولاً مالم تكن امه مسئولة ، وابوه مسئولاً ، ومدرسه مسئولاً.. فعلى حكوماتنا ان تنشر المبادئ التربوية الصحيحة ، وتعدل برامج التعليم بما يحقق الغرض المنشود ،وتحرص كل الحرص على اختيار المسئولين والمسئولات لتدريس البنين والبنات على السواء .. وبذلك يتم الشطر الاول من المشروع الذي اتقدم به الى العرب جميعاً ، ويبقى الشطر الثاني ، أي تروبض الشباب الذين تخطوا مرحلة الانطباعات الاولى على روح المسئولية ، وعلى القدرة على اداء الواجبات قبل ممارسة الحقوق .. وهؤلاء هم طلبة الجامعات وقد بلغ عددهم في مصر مثلا طبقاً لاحصائيات الاسبوع الماضي ، خمسا واربعين الفاً ، وانه لرقم رهيب يبعث الرعدة في اوصالنا ولا شك ان الجامعيين عندكم كثيرون ايضاً ، وسوف يسيرون الى مزيد من الكثرة على مضي السنين، والجامعيون هم الفريق الثاني الذي اتحدث عنه ، فعلينا

ان نعينهم على تحمل المسئولية ، وذلك بتجنيدهم في الخدمة الاجتماعية ، كما يحدث في المجتمعات المتقدمة .. ويبدأ التجنيد بادخال النظم العسكرية في دراساتهم ، لانها رياضة روحية وخلقية تعودهم على الخضوع للاوامر ، وتغرس في نفوسهم محبة القوانين واحترامها ..

وبجانب التدريب العسكري ، يلزم كل طالب جامعي بخدمة الدولة مائتي ساعة في العام ، وله مطلق الحرية في اختيار الاوقات المناسبة لها ، سواء اكانت في أمسيات ايام الدراسة ، أو في راحة نهاية الاسبوع ، او خلال العطلة الصيفية ، ويجب ان يحمل الطالب دفتراً حكومياً رسمياً تقيد له فيه ساعات الخدمة التي يؤديها للدولة ، فاذا اشتغل اليوم ساعة حسبت له ، واذا اشتغل غداً ساعتين حسبتا له أيضاً .. وليس المهم ان تنحصر الخدمة في شهر او تتوزع بين عشرة شهور ، انما المهم ان يؤديها في خلال العام على الوجه المتفق عليه .

ومن اليسير علينا ان نحدد اوجه العمل التي تستفيد منها الدولة من شبابنا ، فمنها التعليم الالزامي في المدن والقرى ، ومنها المساهمة في المشروعات الزراعية والاقتصادية والاصلاحية ، ومنها المحافظة على المرور كما حدث في مصر خلال اسبوع الامان ، ومنها حماية الاخلاق بالتمرن على اداء مهات بوليس الآداب ، ومنها ايضاً اختيار الممتازين من شبابنا في الشخصية والاجتهاد ومعرفة اللغات ، لرعاية السائحين والمصيفين ، وتسهيل اسباب الراحة لهم خلال اقامتهم في بلادنا ..

ولا احب من حضراتكم ان تستهينوا بهذا المشروع ، او تظنوا انه فكرة طرأت علي ، فقد عملت به دول اوروبية سبقتنا في حضارتها ومدنيتها . واثبتت لها التجارب خيره الجزيل ، فتوسعت فيه ، ودعت الى تعميمه في البلاد الاخرى ، باعتباره افضل وسيلة الى تربية المواطن الصالح ..

ومن الخير ان نتأمل الاحوال في العالم كله ، فنجد ان طابع هذا العهد ثورة في الشباب اينما كانوا وحيثما وجدوا ، عمادها تمسكهم بقيمهم ومقوماتهم

الخاصة ، وكلها تختلف تمام الاختلاف عن قيم ومقومات الاجيـــال الاخرى .. ولثورة الشبـاب أسباب منها : توسع حيـاتهم المـادية دون الروحيـــة والمعنوية ، ومنهـا استذكارهم للقوى التى تستغل الأغلبية لصالح الاقلية ، ومنهـا الطبقات الذين هم من الاوتوقراطية الثقافية والسياسية والاقتصادية ، خصوصاً في بلاد مثل بلادنا ، مازالت التقاليد القديمة سائدة فيها ، ويشعر الشباب انها تعرقـــل جهودهم . وتقف دون تحقيق آمالهم ..

ومن أوجب واجباتنا ان لانهمل هذه الاعتبارات اونحاربها ، انما يتحتم علينا ان نعترف بها ونعنى عناية خاصة بتحويلها الى جهود انشائية مفيدة ، بأن نوفر للشباب فرص التوسع ومجاله ، فنشركهم في أوجه تقدم بلادهم ، ويصح ان نلجأ — مع التجنيد الاجتماعى — الى نشر اندية خاصة بالشباب يتمرنون فيهـا على الايمان ببلادهم ومجتمعاتهم ، ويستعدون للقيادة التي لابد ان يصلوا اليها في يوم من الايام .. ويكون المران في هذه الاندية ثلاثياً : مران القلب على النبل بالعطف والفهم والصدق ، ومران الذراع على العمل والاتقان والتعاون ، ومران الجسد على القوة في التغلب على الامراض ، أما في الريف فتتغير التفاصيل الفرعية لهذا البرنامج . بما يلبي مطالب الحياة فيه ، فيضاف الى ماتقدم مران على الاستفـادة بالعلم الحديث في ممارسة الزراعة وتنمية الصناعات الزراعية ، ليرتفع بذلك المستوى الاقتصادي للفرد والجماعة ..

وثقوا — ياحضرات السادة والسيدات — أننا اذا حققنا هذه المقترحات ، كتبنا للعروبة حياة جديدة لم يرو لها مثيل في تاريخنا الطويل والسلام عليكم ورحمة الله .

المحاضرة الخامسة

أثر الحركات الفكرية في بناء الأمم

للدكتور محمد حسين هيكل

= ألقيت بتاريخ ٢٤ نيسان سنة ١٩٥٢ =

سيداتي ، سادتي

اشكر لمدينتكم الشهباء ذات التاريخ المجيد والحاضر الحافل بجلائل الأعمال دعوتها إياي لمحاضرتكم ، واشكر لصديقي الاستاذ سامي الكيالي نيابته عن المدينة في هذه الدعوة الكريمة ، واشكر لكم تفضلكم بالحضور اليوم للاستماع إلي ، ولتتيحوا لي فرصة الاتصال بكم وتبادل الحديث معكم فيما يعنينا جميعاً ، نحن أبناء هذه المنطقة الحساسة من مناطق العالم ، وفيما يعيننا على ان نهض بواجبنا في ارتقاء العالم الحاضر ، وعلى اقرار السلام في ربوعه .

سيداتي ، سادتي

ليست هذه اول مرة أزور فيها حلب . فقد سبق ان زرتها في سنة ١٩٣٢ بدعوة من صديقي سامي الكيالي ، وكان يومئذ يشاركنا في العمل بجريدتي السياسة والسياسة الاسبوعية ، يراسلنا من هنا ، ويدبج بيراعته البارعة مالا تزالون تقرؤون مثله من بحوثه القيمة في مجلة الحديث . ولقد تركت هذه الزيارة لحلب منذ احدى وعشرين سنة أجمل الأثر في نفسي وأبقاه . وانني لواثق ان تترك زيارتي الحاضرة في نفسي أثراً أجل وأبقى ، وان لم اكن واثقاً ان ستتاح لي فرصة

العود إلى مدينتكم الجميلة بعد احدى وعشرين سنة اخرى . فاذا كان من بينكم اليوم من يذكر زيارتي القديمة لمغانيكم ومفاتن مدينتكم فمرحباً به ، وارجو الذين لم تطاوعهم سنهم يومئذ على مشاركتنا في تلك الزيارة الاولى ان يذكرونا بالخير بعد احدى وعشرين سنة ، وان يطلبوا لنا من الله الرحمة والمغفرة .

وإني لأشعر بسعادة كبرى لزيارتي حلب اليوم ، كما شعرت بمثل هذه السعادة في زيارتي الاولى ، لما جبل عليه أهلها من لطف وكرم خلق ومن شمائل وسجايا جديرة بكل تقدير واعجاب ، ولما بيننا نحن اهل هذه المنطقة من مناطق العالم من اواصر قربى توثقت على حقب التاريخ ، ثم هي اليوم تزداد توثقاً وتوكيداً حتى لأكاد أشعر بأنها توشك عما قريب ان تجعل منا شعباً واحداً في الحياة العالمية ، كما اننا شعب واحد في لغتنا ، وفي عقائدنا ، وفي تقاليدنا ، وفي آلامنا وآمالنا ، وفي المثل العليا التي نهدف كلنا ، بكل ما اوتينا من قوة العقل والروح ، لتحقيقها تحقيقاً كاملاً .

ربما قامت في سبيل الوحدة العربية عقبات لابد من تذليلها ، فان يكن ذلك فهلا مهدنا الطريق وخطونا في سبيلها الخطوة الاولى .

ولقد طالما فكرت ، سيداتي وسادتي ، في هذه الجامعة العربية ، ثم فكرت في دول « الكمنولث البريطاني » وساءلت نفسي : اذا كانت هذه الدول المنتشرة في بقاع الارض المختلفة ، في بحر الشمال ، وفي المحيط الاطلنطي ، وفي المحيط الهندي ، وفي المحيط الباسفيكي ، تكون وحدة متصلة المصالح والاتجاهات ، أفليس اولى بالدول المتجاورة في هذا الشرق ، والتي كانت تؤلف وحدة سياسية في بعض حقب التاريخ الماضية ، ان يتألف منها « كمنولث » الشرق الاوسط ، وان تكون دول « كمنولث » وادي النيل بعض اعضائه ؟ وهلا نستطيع ان نصوغ الميثاق الذي يجمع هذه الدول على غرار مجموعة دول « الكومنولث البريطاني » فتكون كل واحدة من دوله مستقلة تمام الاستقلال ، متكافئة مع سائر دوله تمام التكافؤ ، وتكون كتلته كلها مترابطة في وحدة تنظم مصالح دوله جميعاً فيما بينها

وتدافع عن هذه المصالح دفاعها عن حرية هذه الدول واستقلالها ؟

سيداتي ، سادتي

ليس الحديث عن هذا الكمنولث العربي ولا عن كمنولث وادي النيل موضوع حديثي اليكم اليوم . فالكلام عن ايهما قد يدعو الى استطراد يتناول شؤون السياسة العملية . وقد آثرت في الآونة الحاضرة ان امنح نفسي اجازة تريحها من التفكير في السياسة العملية ، لذلك اغتبطت حين اقترح على صديقي الاستاذ سامي الكيالي ان احدثكم عن الحركات الفكرية في بناء الامم . صحيح ان الحديث في هذا الموضوع يتصل بالسياسة هو الآخر . لكنه يتصل بالسياسة اتصالاً نظرياً ، ويتصل بالتاريخ السياسي اكثر من اتصاله بالحاضر السياسي ، وفيه من فسحة المدى انه يتناول مناطق العالم المختلفة في اوربا وأمريكا وآسيا كما يتناول منطقتنا في آسيا وافريقيا . وهو ، فيما يخيل إلي ، لا يقل طلاوة عن الحديث السياسي في الاحوال الحاضرة ، وإن كان بطبيعته اقل منه اثارة للمشاعر والعواطف .

وأود اولاً ان اسأل : ماهو المقصود بالحركات الفكرية ؟ ولعلي لا اكون مخطئا حين اجيب على هذا السؤال بأن الحركات الفكرية انما هي يقظة الامم من ركود تألفه وتستنيم اليه ، فتؤدي استنامتها الى هذا الركود الى انتشار العادات الضارة ، والعقائد السيئة ، والمفاسد التي تصبح في حكم العادات والعقائد ، والتي تضر بالمجموع القومي ضرراً يشعر به بادئ الرأي بعض الافراد فينبهون اليه ، ثم ينتشر الشعور به في طوائف الامة المختلفة ، فاذا علت الصيحة بمقاومة هذا الفساد لبى الشعب هذه الصيحة ، فكانت اليقظة ، وكانت الحركة الفكرية او التحريرية للقضاء على العادات الضارة والعقائد السقيمة والمفاسد الناشئة عنها . وعند ذلك تتحرك نفسية الشعب إلى أمل أسمى ومثل أعلى يراد تحقيقها للخير العام .

والركود الذي يصيب الشعوب فتنشأ عنه هذه المفاسد مثله في الجماعة الانسانية كمثل ركود الماء وما ينشأ عنه من طحلب يعلو سطحه ومن جراثيم تنمو في هذا الطحلب فتفسد الماء نفسه فيصبح آسناً .

ويقظة الشعب لمحاربة الآسن الذي يرسم عليه ومقاومة ما ينشأ عنه من فساد انما مثلها كمثل الماء الجاري يندفع قوياً الى مواضع الركود فاذا الطحلب يتمزق وينزاح أمام هذا الماء المندفق فيلقى به إلى الشطآن حيث تلفحه الشمس وتنقيه وتطهره من جراثيمه . كذلك تفعل يقظة الشعوب . تمزق ما كثف من حجب العادات الضارة والعقائد السقيمة وتقضي على جراثيم الفساد التى عششت فيها ثم اذا الكيان القومي يقاوم ما اندس اليه من ضعف ، واذا بناء الامة الذي كاد يتهدم ويتداعى يعود متيناً قويا ، واذا هذه الامة تستظل بلون من حرية الفكر ـ يجدد فيها العزائم المحطمة والنفوس الضعيفة ، ثم اذا بها تندفع متحدة الكلمة متوثبة العزم لتنهض بالعبء الانساني الذي يقتضيها التقدم في طريق الكمال .

واليقظة القومية انما مصدرها العقل والعاطفة إذ بغالبان السليقة الحيوانية ويتغلبان عليها ويسموان بها الى ما يرضي الشعور البشرى بالكرامة الانسانية والعقل والعاطفة هما اللذان يوجهان السليقة الحيوانية في الانسان الى الخير او الى الشر فيسموان بها الى مصاف الابرار والعلماء والقديسين ، او ينحدران بها الى مصاف الاشرار والجهال والفاسدين .

ومن هنا كان اختلاف هذه السليقة في الانسان عنها في سائر الحيوان . سليقة الحيوان تهديه طريقه في الحياة على نحو ما اهتدى آباؤه وأجداده وسائر اسلافه منذ كان نوعه : فالاسد اليوم يعيش كما عاش الاسد من مائة ومن الف ومن عشرة آلاف سنة مضت . وشأن الاسد شأن سائر الحيوان . اما الانسان فتتأثر سليقته بهدى عقله وعاطفته وحسه ، لانه يستطيع بهداها ان يوفر لنفسه ألواناً من المتاع في الحياة لا يبلغها عن طريق السليقة وحدها .

صحيح ان سليقة الحيوان وسليقة الانسان يهدفان كلاهما الى المحافظة على الحياة والى تخليد النوع . والمحافظة على الحياة تقتضي كليها الطعام والشراب والمأوى . وتخليد النوع انما يكون بالتناسل . لكن الحيوان لا يعني من طعامه وشرابه ومأواه وتناسله بمتاع خاص يلذ حسه او يرضي عاطفته او يرضى عنه عقله . وانما تدفعه الطبيعة الى ان ينال من ذلك ما يسرته له في حدود الاغراض التي تمليها

سليقته فى المحافظة على الحياة وتخليد النوع . أما الانسان فلا يكتفي بما تيسره الطبيعة ، بل يحرص على تحويره وتنظيمه على صورة تنيله من المتاع بالحياة ما يجعله أشد حرصاً على المحافظة عليها ، ومن تخليد النوع ما يخلع عليه ألواناً من الحس والعاطفة ليس للحيوان منها الا النزر القليل ، ثم يبدع عقله وحسه وتبدع عاطفته ألواناً من العلوم والفنون والآداب تزيد هذا المتاع أضعافاً مضاعفة .

ومن هنا كان تطور الانسان على حقب التاريخ في ألوان حياته الفردية والجماعية ، وكان تطور صلات الناس بعضهم ببعض في الاسرة والقبيلة والمدينة والامة ، وفيما بين الامم بعضها وبعض . ومن هنا كذلك طور العلم اسباب الحياة من شظف العيش الذي كان يحياه الناس منذ ألوف السنين ، والذي لا يزال مألوفاً عند بعض الجماعات الانسانية المتخلفة الى ما وصلنا اليه اليوم من آيات العلم والفن وسائر ما هنالك من نتاج العقول ووحي الخيال في مختلف الميادين .

جاء هذا التطور الذي نقل الجماعة الانسانية من حال الهمجية الى أسمى ما بلغته من مراقي الحضارة نتيجة ليقظة العقل والعاطفة يقظة تكررت عشرات المرات في مختلف ارجاء الارض ، بعثتها في كل مرة تلك الحركات الفكرية فكان لها ما قدمنا من أثر في بناء الامم .

وقد اختلفت صور هذه اليقظة باختلاف الازمنة والاماكن التي تقع فيها فكانت تارة يقظة روحية ، وتارة اخرى يقظة فنية ، وتارة ثالثة يقظة علمية ، وتارة رابعة يقظة اقتصادية ، وهلم جرا ، وفي اعقاب كل واحدة من هذه اليقظات كانت الحركات الفكرية تتفاعل فتخرج الامة من سباتها ومن ركودها الى نشاط معمر يظل زمنا حتى تبدو اليقظة في ركن آخر من اركان العالم ، فاذا تلك اليقظة الاولى تنطوي على نفسها ، واذا هي تنقلب شيئاً فشيئاً ركودا يعلوه حجاب يكثف بتوالي الزمن وتعشش فيه جراثيم العقائد السقيمة والآراء الضارة وما ينشأ عنها من فساد وانحلال يطول زمنها او يقصر حتى تمزق حجابها يقظة جديدة ونهضة فكرية جديدة .

وتاريخ الانسانية سلسلة متصلة من تلك اليقظات ومن أدوار الركود

تبدوها هنا وهناك في مختلف أرجاء العالم . وحسبي ان أعيد امام ذاكرتكم بعض هذه اليقظات لتروا أن مصدرها جميعاً كان حركة فكرية ، ولتقدروا ما كان لها من اثر في بناء الامة التي ظهرت فيها ، ثم امتدادها من بعد ليعم أثرها العالم كله.

وأول مثل اضربه لليقظات الروحية. فهذه الاديان التي نشأت في منطقتنا، منطقة الشرق الادنى ، قد كانت كل واحدة منها ، في اول امرها ، حركة فكرية نادى بها رجل اصطفاه الله فأوصى اليه برسالة الحق هدى للناس بما لا تعي به عقولهم فهتك برسالته حجاب ذلك الركود الذي خيم على الامة التي نشأ فيها . كان موسى بن عمران في مصر، وكان فرعون مصر يقول لاهلها : أنا ربكم الاعلى، وكان أهل مصر يخلعون على فرعون كل مظاهر الالوهية وصفاتها ، فجاء موسى بأمر ربه وأعلن في الناس أن فرعون ليس الا رجلاً كالرجال ، وان الله جل شأنه برأه كما برأ غيره من الناس ، وأن فرعون معرض للخطأ كما ان غيره من الناس معرض للخطأ ، وأن الكمال لله وحده ، والعصمة له وحده ويجب ان تكون العبادة له وحده.

هذه فكرة تحريرية القى بها موسى فأثار فرعون ثم كان لها من بعد أثرها في حياة العالم كله .

وجاء عيسى وبطش الرومان مسلط على الرقاب فألقى على الناس آية العفو والمغفرة والتسامح والسلام فكان ما القاه فكرة جديدة قاومها الطغاة وقاوموا رسولها ، كشأنهم في مقاومة كل فكرة تحريرية : لكن هذه المقاومة لم تمنع هذه الفكره من ان تشع في الآفاق اشعاع نور الشمس فيها ، ولم يمنع الفكرة ذاتها من أن تنتشر وأن تحتل قلب روما نفسها لتقضي على الطغيان فيها . وانتشرت المسيحية في روما وفي مصر وبلاد الشرق ثم عم نورها آفاقا لا تزال تسبح بحمد المسيح وتقدس له : وكان للفكرة التى ألقاها المسيح أثرها في بناء الامم التي دانت لتعاليمه ، ولا يزال لها من هذا الاثر في بناء أكثر الامم رقي وحضارة في عهدنا الحديث ما تعرفون .

وجاء النبي العربي برسالة الاسلام الى شبه الجزيرة يوم خيم عليها ركود كانت عبادة الاصنام مظهره . جاء يدعو الى التوحيد والى الاخوة الانسانية والى

أسمى الفضائل النفسانية ، فلم تمض على دعوته غير عشرات قلائل من السنين ثم اذا الامبراطورية الاسلامية تمتد شرقاً من الهند والصين الى المحيط الاطلنطي، واذا هذه الافكار التحريرية تنهض بأمم أفسدها الركود فتبعثها لتقيم في العالم حضارة وتبني في العالم شعوباً وامماً لاتزال حتى اليوم تؤمن برسالة النبي العربي ، ولا تزال ترجو ان تبعث في العالم روحا جديدة من الاخاء والتسامح ومن المحبة والسلام ومن الخلق الكريم تنقذه من فساد حل به وهو يرزح اليوم تحت كلكله:

هذه الحركات الفكرية التي ادت الى تلك اليقظات الروحية ، والتي كان لها أكبر الاثر في بناء الأمم التي اعتنقت هذه الرسالات ، أصابها الهرم والركود في بعض الاحيان ثم دبت اليها اليقظة في أحيان اخرى فعادت قوية تسمو بالحياة الانسانية الى ألوان من الحياة تضفي على الحياة قيمة لم تكن لها من قبل .

وحسبي أن أذكر مثلا لهذا الركود ولليقظات التي هتكت حجابه حركة البعث في اوربا ، كان قد دب الى المسيحية في العصور الوسطى من أثر الركود ماشجع رجال الدين على بيع براءات الغفران وما يشبه براءات الغفران من امور رآها بعض زملائهم مخالفة صارخة لتعاليم السيد المسيح . عند ذلك ثاروا بهم فكانت الحركة الفكرية التي قام بها مارتن لوثر وكالفن والتي أثمرت البروتستنتية في العالم . وقد كان لهذه الحركة الفكرية من الآثار في بناء الامم الاوربية ما سجله التاريخ وما لا يزال يسجله الى وقتنا الحاضر . فلم يقف أثر هذه الحركة عند الامم التي اعتنقت المذهب الجديد ، بل قضت على كثير مما كان رجال ثورة الاصلاح الديني يشكون منه ، وكانت براءات الغفران في مقدمة ما قضت عليه .

ثم كان لهذه الحركة الفكرية أثر ابعد . ذلك انها نبهت الاذهان إلى أن للعقل الانساني حقوقاً لا يمكن ان تهضم ، وان العقل الانساني يستطيع ان يفتح للانسان من ابواب الطمأنينة والسعادة الشيء الكثير .

وفي ذلك الحين كانت جيوش الاتراك تتقدم حتى فتحت القسطنطينية

وقضت على بزنطية وعلى الامبراطورية الرومانية الشرقية القضاء الاخير ورفعت لواء الاسلام على البلاد التى فتحتها . هنالك اضطر عدد من العلماء الذين لم يرضوا أن يسيروا في ركاب الغزاة للهجرة الى ايطاليا والى غيرها من بلاد اوروبا ، فكانت هجرتهم طليعة البعث العلمي الذي شهدته اوروبا منذ القرن السابع عشر ، والذي اقام الحضارة الغربية الحاضرة ، وهو لايزال باقي الاثر الى اليوم .

سيداتي ، سادتي .

اسمحوا لى قبل أن اتحدث عن اليقظة العلمية وعن الحركات الفكرية التي وجهتها ، وعن اثرها في النواحي الاقتصادية والاجتماعية وما كان لذلك من اثر في سياسة العالم كله ، وفي قيام أمم وتدهور اخرى ، ان اشير الى ما بين اليقظة الروحية والحركة الفكرية التى توجهها وبين غيرها من اليقظات من اختلاف اساسي . فاليقظة الروحية بطبعها تدعو الناس للعودة إلى الكمال الروحي إذ يكونون قد انحدروا الى مراحل دون مستواه ففهي ليست يقظة دافعة الى تبديل يراد به التقدم الى الامام ، بقدر ما هي حركة مقاومة للتحلل النفساني ودعوة للعود بالروح الى صفاء جوهرها صفاء مصدره ايمانها الصحيح بالله . والايمان بالله هو الايمان بالكمال الروحي . فالله كمال في كل صفاته جل شأنه . واذا كان الله قد خلق الانسان على صورته ، فواجب أن يلتمس الانسان في حياته كل الصفات التي تقربه من الله جهد طاقته .

وليس عجيباً ان يكون ذلك شأن اليقظات الروحية . فهذه اليقظات تتصل بجوهر النفس . وهذا الجوهر لايتغير بالزمان ، بل هو باق بقاء الزمان . فليهد العلم الانسان الى ما شاء الله أن يهتدي اليه فلن يغير ذلك من جوهر نفسه ، ولن يغير مما يدعو اليه هذا الجوهر من معاني المحبة والاخاء والسمو الروحي شيئاً . لقد استطاع علم النفس ان يكشف عن كثير من العوامل التي توجهنا في سلوكنا ولكنه لم يستطع ان يغير المثل العليا لقواعد هذا السلوك . فلم يجعل الكذب او الخداع سبيلنا الى الحق ، ولم يجعل الكراهية والبغضاء سبيلنا الى السعادة ، بل بقيت القيم الاخلاقية التي عرف الناس فضلها من ألوف السنين لم تتغير ، ولا اخالها

تتغير وإن انقضت على يومنا اليوم الوف السنين وعشرات الوفها .

فأما ما سوى اليقظات الروحية والحركات الفكرية التي توجهها فليس يدعو الى مثل هذا العود لماضي مجيد احتل اطواء التاريخ ، بل هو يدعو الى اطوار جديدة في مظاهر الحياة الانسانية تزيد الناس رخاء او تزيدهم بالحياة متاعاً .

لما قامت الحركات التحريرية في اوروبا في القرن الثامن عشر نتيجة جهد العلماء الذين دفعهم الغزو التركي من اليونان الى ايطاليا وإلى غيرها من بلاد اوروبا فتقررت حقوق الانسان وفي مقدمتها الحرية الفردية تطورت النظريات الاقتصادية متأثرة بهذه اليقظة السياسية، متأثرة كذلك بالنشاط الاقتصادي الذى دفعت اليه هذه اليقظة. فبعد ان كانت الحياة الاقتصادية قائمة على اساس من الرق ومن تملك صاحب الارض لمن عليها من الناس ، الغي الرق وارتفعت الصيحة داعية الى الفردية الاقتصادية . هذه العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ادت بآدم سمث ثم بجون ستيوارت مل الى تقرير المبدأ الفردي المطلق ، والى القول بأن اول واجب على الدولة ، بل واجبها الوحيد ، ان تحمي الحرية الفردية في الميدان الاقتصادي ، وان تترك الناس يعملون احراراً متنافسين ، يثرى منهم الى غير حد من استطاع ، ويموت جوعا من لم تمكنه مواهبه من الصمود في ميدان المنافسة . وكانت الحجة الاساسية التي اقاموا عليها نظريتهم ان الطبيعة تعمل لبقاء الاصلح وان مقياس الصلاحية هو القدرة على المنافسة في الحياة . فاذا عجز انسان او عجزت طائفة من الناس عن ان تقف من المنافسة موقف الظافر فعليها ان تذعن للهزيمة ، وان تكتفي بالفتات الذي يلقى اليها من جانب الظافرين : واذا بلغ من ضعفها الا تستطيع البقاء فذلك الدليل على عدم صلاحها له ، ومن الطبيعي إذن ان تندثر وان تفنى :

ظلت هذه النظرية الفردية قائمة متحكمة طيلة القرن التاسع عشر ، على الرغم من قيام دعاة للاشتراكية لم يستطع هؤلاء الدعاة ان يثبتوا اقدام دعوتهم ، وظلت الفردية الاقتصادية منتصرة في حمى النظام السياسي الذي يحمي الحرية الفردية ولا يعبأ بما سواها . فلما آذن القرن التاسع عشر ان يولي بدا التفكير الاشتراكي تقوى قوائمه . وبدأت صيحات الدعاة له تدوي في آذان الشعوب ، وبدات الطبقات

العاملة تشعر بأن لها حقوقاً ، وبأنها تستطيع من طريق التكتل ان تبلغ هذه الحقوق ، وبدأ المفكرون الاشتراكيون ينعون على النظام الفردى أنه في ايمانه بالفرد ينسي الجماعة وينسي الشعب والامة ، وينادون بأن العدالة الاجتماعية تقضي توزيع الثمرات التي تهبها الطبيعة للناس جزاء كدهم وعملهم توزيعاً ادنى الى العدل . وتأثرت الحياة في بلاد أوربا المختلفة بهـــذه الحركة الفكرية فقامت في المانيا الاشتراكية الديمقراطية . وقامت في فرنسا ألوان مختلفة من الاشتراكية . وبدأ حزب العمال يقوم في انكلترا . وانتشرت تعاليم تولستوي الاشتراكية في روسيا .

ولست أشك في ان هذه الحركة الفكرية قـد كانت ذات أثر حاسم في قيام الحرب العالمية الاولى . فقد شعر غليوم الثاني عاهل المانيا فى مستهل هـذا هذا القرن العشرين بأن الشعب الالماني في حاجة الى التوسع لتنال الطبقات العاملة فيه من ثمرات كدها ما يرفع مستوى العيش بالنسبة لها . فاذا لم تجد الوسيلة لذلك عنف النضال بينها وبين أرباب رأس المال فهدد ذلك كيان الدولة بالاضطراب والثورة . اما اذا هي وجدت الوسيلة لذلك ولو خارج الحدود الالمـانية فقد وجدت الطمأنينة السبيل الى البلاد . ولمـا كانت فرنسـا وانجلترا متحكمتين يومئذ في المستعمرات الافريقية والاسيوية ، ولم يكن يسيراً أن تنزل أيهما عن شيء منها ، فقد أدت هذه الحال لاعلان الحرب العالمية الاولى وإلى اكتواء العالم بنارها .

كانت روسيا في ذلك الحـين تضطرب بالحركة الفكرية التى دعا اليهـا تولستوي . وكانت القيصرية الروسية تقمع هذه الحركة بكل ما أوتيت من قوة ، وتنفي القائمين بها في سيبريا او تضطرهم الى الفرار خارج حدودها . وكان لينين وطائفة معه من مفكري الروس بين هؤلاء الذين نفوا أنفسهم . فلمـا اندحرت الجيوش الروسيـــة امام المانيا في سنة ١٩١٧ واضطرت روسيا ان تعقد صلح برست لتوفسك شعر لينين وزملاؤه بأن الفرصة سانحة أمامهم لاقامة النظام الشيوعي على النحو الذي صوره كارل ماركس . فعـادوا الى روسيا وأشعلوا الثورة فيها وانتصروا وأقاموا النظام السوفييتى الذي تطور شيئاً فشيئاً الى وضعه الحاضر .

ولم تكن روسيا وحدها هي التي تأثرت بهذه الحركات الفكرية نتيجة للحرب

العالمية الاولى ، بل تأثرت فرنسا وتأثرت ايطاليا وتأثرت انجلترا مع أنها جميعاً خرجت ظافرة من تلك الحرب . وحسبي ان اذكر ان حزب العمال الذي لم يكن يمثله في البرلمان البريطاني الى ان بدأت تلك الحرب غير افراد لايبلغون عدد أصابع اليدين قد قوي حتى اصبح يهدد حزب المحافظين ، وحتى طغى على حزب الاحرار البريطاني طغياناً سار به الى مصيره الحاضر :

وكان طبيعياً ان تترتب هذه النتائج على الحرب العالمية الاولى . فقد شعرت الجماهير الفقيرة التي اشتركت في الحرب في تلك البلاد كلها انها تحمل عبء الدفاع عن الوطن مايزيد على ما تحمله طائفة ارباب المال اضعافاً مضاعفة ، فمن الطبيعي ان تطمع في حظ من العدل اوفر مما كان لها حين كان العالم يرتع في بحبوحة من السلام ، وحين كان منطق النظرية الفردية معتمداً على مايسميه قانون الطبيعة القاسي للأجور ، متناسياً ان لهؤلاء الذين يتناولون تلك الأجور من القوة المادية ما يسر لأبناء الوطن جميعاً ان يعيشوا من كدهم ، ومايجعلهم اذا امتنعوا عن العمل يشلون الحركة الاقتصادية ويعرضون النظام القومي كله لنتائج خطيرة . أما وقد ذكرت ما كان للحركات الفكرية في الميدان الروحي وفي الميدان الاقتصادي من أثر في الحياة العامة فيجب ألا ننسى ما كان لهذه الحركات من أثر في الميدان الاجتماعي . أشرت الى الغاء الرق بعد ان ظل نظاماً قائماً في العالم ألوف السنين ، والى ان الغاء هذا الرق انما جاء أثراً للحركة الفكرية التي أدت الى تقرير حقوق الانسان ، وفي مقدمتها ان الناس يولدون احراراً ، ويجب ان يظلوا حياتهم احراراً . لكن الفردية الاقتصادية التي حصرت عمل الحكومات في حدود المحافظة على الامن ليستمتع كل فرد بحريته مادام لايعتدي على الحرية الماديه لغيره ادت الى بقاء الطبقات الكادحة ، وهي السواد الاعظم في كل امة من الامم في غيابات الجهل المطبق . فلما بدأت الدعوة للعدالة الاجتماعية ، وبدأت الحركة الفكرية تطالب بأن يتسلح الافراد جميعاً للحياة بأسباب المعرفة التي تمكنهم من ان يشقوا طريقهم في الحياة الكريمة ، اعترفت الامم المتحضرة بحق الافراد جميعاً في ان ينالوا حظاً من التعليم يؤهلهم لادراك ما في الحياة من معاني الحق والخير والجمال : بذلك نهضت الشعوب التي تقرر فيها هذا الحق ونفذ نهضة قوية ،

وبدأ تضامنها يقوى وبدأت تؤدي للحياة الانسانيـــة في امم الارض المختلفة خدمات جليلة :

وكان من أثر هذه الحركة الفكرية في الميدان الاجتماعي ان تطور موقف المرأة من الحياة القومية اضعاف ما تطور موقف الرجل منها . لقد كانت المرأة معتبرة في العصور الوسطى وعاء للتناسل ومتاعا للرجل وخادماً لذريته . فلما تقررت الحرية الفردية كان نصيب الرجل منها اوفر اضعافاً من نصيب النساء ، لان الرجال هم الذين قاموا بالثورة على الماضي . لكن تقدم الزمن أتاح للمرأة ان تكسب حقوقاً انتهت الى اعتراف ميثاق الامم المتحدة بالمساواة بين الرجال والنساء في الحقوق كلها . واذا كان هذا الاعتراف لم يطبق الى اليوم في بلاد كثيرة ، فأن مجرد الاقرار به يعتبر خطوة فسيحة نحو تحقيقه . ربما لاينتهي ذلك الى ان تقوم المرأة بالاعمال التي يقوم بها الرجل ، كما ان محالا على الرجل ان يقوم بكثير من الاعمال التي اتاحت الطبيعة للمرأة ان تقوم بها. لكن الذي لا مرية فيه ان هذا الاعتراف فتح امام المرأة ميادين جديدة في الحياة المرأة وحدها هي القديرة على تكييف الصورة التي تشغل بها هذه الميادين .

سيداتي . سادتي :

أنتم تعلمون كما اعلم ان كل واحدة من هذه الحركات الفكرية وما اليها من مثلها في ميادين العلم والفن وغيرها لم تكن تنتج آثارها في يسر على أثر قيامها بل كانت تلقى من المقاومة ما يردها على اعقابها في كثير من الاحيان لتتحفز من بعد فتقوم بهجوم جديد تنال فيه حظاً كبيراً او حظا ضئيلا من النجاح . وقد أشرت إلى أن الحركة الاشتراكية ظلت قرنين كاملين تعالج النظام الفكري في اوروبا قبل ان يتاح لحزب العمال في انجلترا ، وللاحزاب الاشتراكية في المانيا وايطاليا وفرنسا ، أن تبلغ مابلغت من نجاح . وكذلك اشرت الى مقاومة القيصرية الروسية للافكار التحريرية حتى كانت هزيمة روسيا في الحرب العالمية الاولي وانتقال روسيا السريع من الحكم المطلق الى الحكم المنشفيكي ثم الى الحكم البلشفي . وهذا طبيعي . وان كان انتقال الفرد من الطفولة الى الصبا الى المراهقة

الى الشباب يقتضي عشرين سنة او نحوها فليس كثير ان يحتاج انتقال الامة من طور الى طور الى اضعاف هذا الزمن ، الا ان تكون الامة من الحيوية بحيث تستطيع ان تسرع الخطى وأن تبلغ في اعوام مالا يبلغه غيرها في عشرات الاعوام .

وانتم تعلمون كما أعلم أن هذه الحركات الفكرية تتفاعل وتتأثر بعضها ببعض ويحدث تفاعلها في العالم كله أثراً يختلف قوة وضعفاً باختلاف قيمتها ومصدرها .

لما أدى التفكير العلمي إلى ازدهار الصناعة في الدول الاوربية فزادت منتجاتها عن الحاجات المحلية ، فكر ساسة هذه الدول في الوسيلة لتصريف هذه المنتجات وايجاد أسواق لها . وأدى بهم هذا التفكير إلى التماس هذه الاسواق في الامم المتخلفة عنهم في ميدان الصناعة ، ثم أدى ذلك إلى استعمار هذه الدول . ألم تكن شركة الهند الشرقية شركة بريطانية غايتها تصريف منتجات الصناعة البريطانية في الهند . ثم أصبحت هذه الشركة حكومة داخل الحكومة أو الحكومات الهندية ، ثم اصبح الجيش الانجليزي يؤازرها ، ثم انتهت مؤازرته الى استعمار انجلترا الهند ، ثم كان ذلك مقدمة السياسة الاستعمارية الاوربية للامم الاسيوية والافريقية . و كذلك تمخضت الحركة الفكرية في الميدان العلمي عن حركة صناعية انقلبت إلى حركة استعمارية خضع العالم لسلطانها طوال القرنين الماضيين .

ورب ضارة نافعة كما يقولون . فقد تمخضت الحركة الاستعمارية عن الحربين العالميتين الاخيرتين اللتين أنزلتا بالعالم من الكوارث ما لم يشهد له التاريخ مثيلا من قبل ، ثم تمخضت هاتان الحربان عن يقظة الشعوب المستعمرة يقظة أدت بالكثير منها إلى القاء نير الاستعمار ، والى النهوض تريد الحياة الحرة الكريمة ، وتريد مشاركة أمم الارض جميعاً في النهوض بالانسانية كلها لتسرع الخطى في طريق التقدم نحو الكمال .

سيداتي . سادتي :

لعل منكم من يسأل : ما بالي لم أشر من الحركات الفكرية التي قامت

في هذا الشرق إلا الى الحركات الروحية التي حدثت في عهد الانبياء عليهم السلام، ثم التمست الامثال للحركات الفكرية في القرون الاخيرة مما حدث في اوروبا ؟ ولا أحسب جوابي على هذا السؤال خفيا على احد منكم . لقد خيم الركود في أذياله من الجهل والضعف والفساد على هذا الشرق في القرون الاخيرة ، منذ حكمها السلاطين العثمانيون حكم استبداد وطغيان ، فلم تبرز فيها حركة فكرية قوية الاثر تستطيع ان تهتك حجاب هذا الركود وتطرد أمام تيارها الجارف ماتخلف عنه من جراثيم التقاليد الضارة والآراء السقيمة والفساد المذل . ولست أرى إذ أستعيد أمام ذاكرتي ماحدث في منطقتنا هذه من الحركات الفكرية الا ماقام به السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده في الميدان الديني ، وما قام به قاسم امين في الميدان الاجتماعي . أما ماسوى ذلك مما حدث فلا يعدو ان يكون حركات مستعارة من الغرب لقيت من المقاومة ما حطمها ، لان سياسة الاستعمار الغربي حريصة على ان تتحطم . ولولا هذا الحرص لكان لهذه الحركات من الاثر ما يفيد في بناء أمم الشرق اجل الفائدة :

اتريدون دليلا على هذا الحرص . . اليكم مثلان حدثا في مصر ولعل لهما في غير مصر نظائر . قامت في مصر في اوائل هذا القرن العشرين حركة ترمي الى انشاء جامعة علمية تنقل الى مصر ثمرات العلم من مختلف بلاد العالم ، وتمهد السبيل لحركة فكرية في الميدان العلمي تفيد مصر وتفيد امم الشرق العربي كلها . ولم يلجأ الدعاة الى هذه الفكرة للحكومة لانهم كانوا على يقين من ان الحكومة لن تستجيب اليهم ، بل لجأوا الى السراة وكبار الاغنياء يطلبون اليهم التبرع لهذا المشروع الجليل . وكان لورد كرومر معتمد انجلترا في مصر وصاحب الكلمة النافذة فيها يومئذ ، وكان يرى ان التعليم العالي في هذه البلاد لايجوز ان يزيد تزويد الشبان بالمعلومات الكافية ليكونوا ادوات طيعة في يد الحكومة اذا هم تولوا وظائفها . لهذا اوحى الى رجال الحكومة جميعا فطالبوا الاعيان بانشاء « كتاتيب » لتعليم القراءة والكتابة وبالتبرع لها حتى يصرفهم عن التبرع لمشروع الجامعة . وكان لهذا العمل اثره . صحيح ان الجامعة قامت رغم ذلك ، ولكن مواردها المحدودة حالت دون التوسع فيها بالقدر الذي كان يقصد الدعاة اليها ان يبلغوه . وكذلك

بقيت الفكرة تتعثر حتى استقلت مصر ثم ضمت الحكومة كلية الآداب الاهلية التي انشئت نواة للجامعة الاهلية ، واقامت سائر كليات الجامعة .

اما المثل الثاني فتفكير بعض المصريين في اوائل هـذا القرن كذلك في اقامة صناعة النسيج في مصر ، هذه الصناعـة المزدهرة اليوم ، والتي تكفي مصر حاجاتها الشعبية وتصدر منها الى الخارج ما فاض عن هذه الحاجات . اتعرفون ما قوبل به ذلك التفكير الاول من لدن لورد كرومر . قيل يومئـذ ان صناعة النسيج لاتصلح في مصر لان جو مصر حار لايساعد على قيام هذه الصناعة : فلما اراد بعضهم ان يجازف مع ذلك قيـل ان هذه الصناعة اذا قامت وجب ان تدفع مقابل الرسوم الجمركية رسوم انتاج حتى لاتتأثر الميزانية . هذا بدلا عن مد يد المعونة لصناعة يراد ان تنشأ على نحو ما يحدث في بلاد العالم كلها .

كانت سياسـة الاستعمار الغربي اذن حريصة على تحطيم ماتخشاه من اثر الحركات الفكرية ، ولو كانت هذه الحركات مستمدة من الدول المستعمرة نفسها. وقد ادى هذا التفكير الاستعماري الى نتيجته الطبيعية المحتومة . زاد المرارة بين الامم الحاكمة والامم المحكومة على النحو الذي زادت به المرارة بين الارقاء والسادة في العصور الوسطى ، ودفع الى نفوس الامم المحكومة الايمان بأن لهـا من الحق في الحياة وفي الحرية ما للامم الحاكمـــة : ولذلك قامت كلها ، في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، تناضل في سبيل حريتها واستقلالها . وهذا النضال هو الذي ادى بالسياسة البريطانية من ذلك الحين لتقدر المصير ولتعترف لطائفـة من الامم التى كانت تستعمرها بحقها في الحياة الحرة ، وأن تكون في نفس الوقت جزءا من الكمنولث البريطاني . لكن هذا التفكير اقتصر يومئذ على الشعوب القادرة على ان تأخـذ حقها بيدها ، سواء من طريق القوة والاقتدار ، او من طريق المقاومة السلبيـة والعصيان المدني . فأما الامم التي استطـاعت بريطانيا ان تناهض فيها النزعة الاستقلالية فقد استبقتها في مركز المستعمرات ، وتركتها لذلك تقاوم بكل وسائلها مذلة الخضوع لحكم الغير على انه رق للامم اشد اهانة من رق الافراد .

سيداتي . سادتي :

ليس من حقي ، وقد سردت عليكم من الحركات الفكرية ما اتصل بالشئون الروحية ، وبالشؤون العلمية ، وبالشئون الاقتصادية وبعض الشئون السياسية ، ان اغفل من هذه الحركات ما كان عظيم الاثر في تهذيب النفس الانسانية ، اقصد الحركات الفلسفية ، والحركات الادبية ، والحركات الفنية : فما قام من حركات فكرية في هذه الميادين قد صقل الحياة الانسانية وجعلها اعذب مذاقا ، وجعل متاعنا بها ارق وارقي ، وإن عنفت في كثير من الاحيان رقته ، وان بلغ رقيه في بعض الاحيان حداً اذهل عقولا لاتستطيع متابعة هذا الرقي والسمو الى عليا درجاته .

والواقع ان متاعنا الحق بالحياة اكثر اتصالا بهذه الالوان من الحركات الفكرية منه بسائرها ، وان كنا في حاجة الى المتاع بنتاج الحركات الفكرية في الشئون التي سبقت الى ذكرها لنستطيع تذوق هذه الالوان الدقيقة الرقيقة السامية من التفكير الفلسفي والادبي والفني .

واني لاحاول ان اتصور ماتكونه الحياة لولا الفلاسفة والشعراء والكتاب وارباب الفنون الجميلة من موسيقيين ومصورين ومن اليهم فأشعر انا لولاهم لكنا اقرب الى حال الهمجية الاولى وان بلغنا من السمو الروحي ومن الحرية السياسية ومن الرخاء الاقتصادي اعظم مبلغ . تصوروا معي حال البلاد العربية في نهضتها الروحية القوية التي اعقبت رسالة النبي العربي عليه السلام لو لم يكن فيها هؤلاء الشعراء والادباء الذين اشاعوا في جوها من رقيق العواطف وجميل الصور والمعاني ما لا تزال تتغنى به الى اليوم . ولقد سئل احد مفكري الانجليز يوماً عن اعظم ما تعتز به انجلترا فكان جوابه : شكسبير والامبراطورية وهل بقي من تراث الامبراطورية الرومانية وما تخلف عنها شيء اجل خلوداً على الدهر من آيات مارك اويل ولوحات رفائيل ومكلينج ومن موسيقي فردي واضرابه . وهل تعتز البلاد الجرمانية بشيء ما تعتز بأسماء بتهوفن وموزار وفاجنر ممن لاتزال الحانهم الموسيقية الشجية تشنف آذان العالم ، ومن ادب جيتي وفلسفة نيتشه ممن لاتزال كتبهم تهز العقول والعواطف افأستطيع وهذه الحال ان اغفل في حديثي اليكم

هذه الحركات الفكرية الانسانية البالغة غاية السمو .

إنني من أشد الناس ايماناً بأن حضارة الامم لاتقاس بقوتها الحربية ولا بتقدمها الصناعي بمقدار ماتقاس برقيها في العلوم والآداب والفنون ، وبأن القوة الحربية والتقدم المادي انما يستمدان من سلائقنا في المحافظة على الحياة ، بينما يصور الرقي في العلوم والآداب والفنون حيويتنا الانسانية التي لاشريك فيها للانسان من سائر الحيوان . فهذه العلوم والآداب والفنون تخاطب العقل والعاطفة والشعور وتدفعها إلى السمو في مدارج البشرية العليا حيث يتجلى النور الالهي في بهائه وسنائه وضاء لألاء ليقربنا من مراتب الكمال ويرينا نور الحق في جلال روعته التي تأخذ بالقلوب والابصار .

والامم التي ازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون هي التي استطاعت ان تضع في بناء الانسانية كلها ، لا في بنائها هي وحدها ، لبنات متينة قام البناء الانساني منها في حقب التاريخ كلها على اساس متين .

وإنه لمن حسن الطالع ، سيداتي وسادتي ، أن تكون الحركات الفكرية في ميادين الآداب والعلوم والفنون قد بلغت في عصرنا الحاضر الى حيث قربت بين الامم ووصلت بينها بأوثق الوسائج .

لما حضرت إلى مدينتكم الشهباء من احدى وعشرين سنة حضرت اليها من لبنان ، ومع ذلك اقتضاني الحضور ساعات طوالا اضطررت معها الى المبيت أثناء الطريق بطرابلس وباللاذقية . واليوم احضر اليكم من مصر الى حلب في ثلاث ساعات بالطائرة . ولولا اصرار صديقي الاستاذ سامي الكيالي لخاطبتكم عن طريق الاذاعة وأنا مقيم بمصر ، ولاستمعتم الي كما تستمعون اليوم ، وكما استمع أهلي وأصدقائي الى اذاعة لي من الهند حيث كنت في يناير الماضي . وأنتم تسمعون حين مقامكم بمنازلكم اذاعات أوربا وأمريكا وتقفون منها على انبائها وعلى علومها وآدابها وفنونها . وأحسبنا عما قريب سنشهد عن طريق التليفزيون اولئك الذين يحدثوننا او يشنفون بأغانيهم او بموسيقاهم آذاننا وان بعدوا عنا مئات الاميال بل آلوفها . ومن يدري ، فلعل العلم يزيد العالم قربا بعضه من بعض ، فلا يكتفي بالغاء

المسافات التي تفصل بين الامكنة ، بل يتغلب كذلك على الزمان فيجعلنا قادرين على أن نعيش مع اجدادنا ومع حفدتنا . ويومئذ تتحقق وحدة الوجود تحققا ماديا ، ولا تكون فكرة عقلية وكفى .

سيداتي . سادتي :

لا أراني بحاجة إلى ان اقص عليكم ما كان لهذه الحركات الفكرية من اثر على الامم التي قامت فيها بعد الذي قدمته في أول هذا الحديث : وانتم تعرفون كما اعرف ما كان للحركات الفكرية السياسية من اثر في فرنسا حين قامت الثورة الفرنسية الكبرى ، وفي روسيا حتى زالت القيصرية لتحل محلها البلشفية وفي انجلترا حين قامت ثورتها الكبرى في القرن السابع عشر فأكرهت ملوكها على الاعتراف بحقوق الشعب ، وفي امريكا حين قام واشنجتن على رأس المحاربين في سبيل الاستقلال ، وفي الهند حين تولى غاندي وأعوانه قيادة حركة العصيان المدني وعدم التعاون في غير عنف ، وفي غير هذه من الامم الغربية والشرقية التي ناضلت في سبيل الحرية الفردية او الحرية القومية . وأنتم تعرفون كما اعرف ما كان للحركات الفكرية الاقتصادية والصناعية من أثر في رخاء الامم وفي توزيع الثمرات توزيعاً يتفق مع موجب العدالة الاجتماعية . وأنتم تعرفون كما اعرف كيف ارتقت الحركات الفكرية في ميادين العلم والادب والفنون بالشعوب التي ازدهرت فيها ، وأن الحركات الفكرية على اختلافها تأخذ بعضها برقاب بعض ، فاذا قامت حركة روحية أو حركة علمية عاصرتها وسايرتها حركة سياسية وحركة اقتصادية وحركة علمية أو ادبية أو فنية . ذلك بأن هذه الحركات الفكرية تهز الامم فتوقظها من سباتها ، فاذا استيقظت نشطت كل عناصرها واندفعت تستبق تريد ان تبلغ الكمال :

ومهما تقف العوائق في سبيل هذه الحركات المتدافعة فانها تنتهي بالتغلب على كل عائق ، شأنها شأن الماء ان حبسته تجمع حتى يحطم السد الذي يحول دون اندفاعه ، او يطغو فوق هذا السد ثم يتخطاه غير عابيء به :

فكثيراً ما قامت هذه الحركات الفكرية حين كانت القيود مفروضة على المفكرين في التعبير عن افكارهم . ففيما قبل الثورة الفرنسية بقليل كان بعض

المفكرين والكتاب في فرنسا لايستطيعون ان ينشروا كتبهم في البلاد الفرنسية فكانوا يضطرون للذهاب الى هولندا لطبعها هناك . وفيما قبل ذلك لقي المفكرون والعلماء الذين قالوا بكروية الارض ألواناً من الارهاق قل أن يحتملها غيرهم . وسجلات التاريخ حافلة بالادلة على ان الحركات الفكرية لايمكن حبسها ، فان هي حبست زمنا فلتخرج بعده من محبسها اعظم أيداً وأقوى سلطاناً ، وليكون لها في حياة الامة وفي بنائها أعظم الاثر ما يسلك الذين حبسوها من قبل في سلك الطغاة والائمة الذين يذكرهم التاريخ بأسوأ ما يذكر به انسان .

لهذا اقتنعت الامم المتحضرة كلها بأن الحرية الفكرية وحرية التعبير هي أقدس مايجب الدفاع عنه . ولعل قوة الحركات الفكرية على تحطيم كل عائق يقف في سبيلها لم تكن الدافع الوحيد لهذا الاقتناع الذي بلغ حد الايمان . بل لعل ما كان لهذه الحركات من أثر في رقي الانسانية الى مدارج الحضارة قد كان ابلغ حجة في هذا الاقتناع وهذا الايمان . فقد تبينت هذه الامم أن تاريخ التقدم الانساني هو تاريخ هـذه الحركات الفكرية ، وان حرية التفكير والتعبير هما اللذان كفلا لهذه الحركات ان تزدهر وتقوى ، وكفلا لذلك عزة الامم وسعادتها ، فأيقنت بأن كل قيد من تشريع او من بطش او ارهاب يقف في سبيل هذه الحرية يضر بالامة أفحش الضرر ، لذا جعلت لها من القدسية في دساتيرها وقوانينها ما يرد عنها كل غائلة ، ويدفع عنها كل عادية ، لتؤتي من الثمرات ما يدفع الانسانية كلها نحو الكمال وهو غايتنا جميعا ، وغاية كل من يدرك المعنى الصحيح لكلمة الانسانية .

سيداتي . سادتي :

لقد طوفت بكم في افاق شتى من تاريخ الحركات الفكرية في العالم ولم اقف مع ذلك الا لماما عند كل واحد منها . فاعذروني إن كنت قد اطلت عليكم او أملتكم . وغاية ما أرجو ان يكون لنا ، نحن ابناء هذا الشرق ، موعظة وعبرة من هذا التاريخ . فمستقبل الانسانية كلها ، لامستقبلنا وحدنا ،

يتطلع اليوم الينا يريد أن يعلم أيان اتجاهنا . ومن لم يعرف الماضي ليعتبر به لم يعرف كيف يصور طريقه في المستقبل . وحاشانا ان يكون ذلك شأننا .

واسمحوا لي أن أتوجه اليكم ، وإلى مدينتكم الشهباء ، وإلى هذه الدار ومديرها ، بأوفر الشكر وأصدق التحية ، راجياً لكم ولابناء الشرق جميعاً وللانسانية كلها اوفر الخير والسعادة .

المحاضرة السادسة

تنبه الوعي القومي عند العرب

للدكتور احمد امين

= القيت بتاريخ ١ ايار سنة ١٩٥٣ =

من يرجع الى التاريخ في القرن الثامن عشر وما قبله ، يرى ان المسلمين كانوا يرون ان العالم ينقسم الى قسمين لاثالث لهما : دار اسلام ودار حرب . فدار الاسلام هي كل ما في يد المسلمين ، ودار الحرب كل ما في يد الاديان الاخرى . وكل احكام ، أبانوها في كتبهم . وأن العالم الاسلامي كله وطن للمسلمين ، وهذا ما نشعر به عند قراءتنا رحلة ابن جبير وابن بطوطة . فأبن بطوطة يدخل أي بلد اسلامية ، فقد يتزوج منها ، وقد يكون قاضياً عليها . ولا يشعر بغربة ما . وكذلك النصارى ، كانوا يرون أن كل بلاد النصارى وطن لهم ، وعن هذه الفكرة نشأت الحرب الصليبية ، فهي تخالف الحرب التي نعهدها اليوم .

لقد كانت دار الاسلام ودار النصرانيـــة تتحاربان ، لاانجلترا ولا فرنسا ولا مصر .

ثم كان أهم ميزة القرن التاسع عشر ظهور القومية . ففرنسا تحس بقوميتها ضد غيرها نصرانيا كان او مسلماً ، وانجلترا كذلك ، والمانيا كذلك ، ظهرت هذه القومية اولا في اوربا ، ثم عدت الشرق ، فكان كل قطر يشعر بقوميتـه ، وقد كان غريبا على الناس منذ عهد قريب دعوة بعض المصريين للقومية المصرية ، ومحاولة انفصالهم عن الدولة العثمانية ، اذ كان الذين عندهم أهم من الشعور القومي .

واقتضت هذه الدعوة امرين هامين :

الاول : ان تكون القومية مؤسسة على وحدة العنصر ، وكل عنصر آخر ، له الحق في قومية مثل قوميته . ولذلك يكون غريبا مثلا أن يحكم الاتراك العرب وهما عنصران مختلفان ، او تحكم ايطاليا الحبشة وقد كان الحكم قبل ذلك منشؤه رغبة الحاكم وقوة سلطته ، فاذا كان قويا ، متفتحة عنده شهوة الحكم ، حكم ماشاء من الامم ، كالذى

نراه في ايام الدولة الاموية ، وصدر الدولة العباسية . فالمبدأ الجديد يقضي بالتوسع أحيانا والضيق احيانا ، بالتوسع عند ما يكون جزء في الامة محكوماً بحكم آخر ، وبالضيق عندما تكون أمة مستولية على امم اخرى ، فيجب ان تتخلى عنها .

والامر الثاني الذي تقتضيه هذه النظرة ، هي ان تكون السلطة في ايدي الشعوب والامم ، لافي ايدي الحكام .

على هذا الاساس توحدت المانيا ، واتسعت رقعتها ، وتوحدت ايطاليا ، وعلى هذا الاساس أيضاً تمزقت الدولة العثمانية . فانفصل عنها البلقان ، واليونان وكان ممن انفصل أيضاً العرب ، لان هؤلاء كلهم عناصر مختلفة عن العنصر التركي وحتى العرب انفسهم بعد الانفصال دبت اليهم روح القومية ، فمصر امة ، وسوريا امة ، والحجاز امة ، وهكذا . وعلى اثر ذلك زال الاعتقاد بحق الملك في الحكم هو واسرته ، مهما ظلموا . وتغلب الارتباط القومي على الارتباط الديني . فمصر مثلا تشعر بقوميتها ، وتفضل الانفصال على التبعية لدولة مسلمة كالدولة العثمانية . غاية الامر ان بين بعض الامم وبعضها ارتباطات بعضها اشد من بعض ، كرابطة اللغة ، ورابطة الدين ، ورابطة التقارب في الثقافة ، ورابطة وحدة التاريخ ، ونحو ذلك . وظلت فكرة القومية تعمل عملها الى اليوم ولم يحل محل القومية شيء آخر .

من هنا نبتت فكرة انفصال العرب من الدولة العثمانية ، وشعور كل قطر بقوميته ، والترابط بين الدول العربية بعضها وبعض . ولكن كانت هذه كلها نواة اولى يلزم ان ترعى ، حتى تؤتي ثمرتها . ولكن تعارضت هذه الفكرة مع الاستعمار ، فالاستعمار معناه ان امة قوية تضع يدها على مصالح امة اخرى ، او امم اخرى ، وهذا يخالف القومية ولذلك حصل الاصطدام بين المستعمرين والمستعمرين . وهذا الاصطدام سببه هذه القومية . فقومية المستعمر تدعوه الى الاعتزاز والمجد وحب الفتح ، حتى ان احد الفرنسيين الكبار صرح بأنه يجب على الجمهورية الفرنسية ان تضم اليها البلاد التي تلائم مصالحهم ، سواء كان ذلك عن طريق الفتح ام عن طريق المفاوضات والمعاهدات .

والامة المستعمرة ترى ان شعورها بالقومية يوجب عليها التحرر من المستعمر ، فوقع التضارب بين الاثنين . هذه القومية جعلت الامم تتقاتل ، ولو كان دينها واحداً لحب الغلبة والسيطرة واختلاف المصالح الاقتصادية والسياسية فالمانيا النصرانية تحارب انجلترا النصرانية ، بل قد يستعين بعضهم بأقوام من غير دينهم ، لاستعانة انجلترا ببعض المسلمين ، حتى ضد بعض الدول الاسلامية ، فلما اشتدت الحرب العالمية الاولى ، ولم يدر احد المعسكرين من سيكون المنتصر ، ارادوا ان يحسوا الشعوب المستعمرة بوعدهم باستقلالهم وان كل أمة سيكون لها الحق في حكم نفسها ، ولو كانت صغيرة ضعيفة ، وان الحرية حق لكل الامم ، ونحو ذلك . فكان هذا سبباً لتأييد القومية ونموها ، وخاصة عند العرب . فقد حاربوا مع الانكليز ضد امة مسلمة وهي الدولة العثمانية انتظاراً لهذا الوعد . ولكن مع الاسف ، لما انتهت الحرب ، تكشفت الامور عن مخاز كبيرة . تكشفت عن أن الانجليز يلعبون على حبلين وينهجون منهجين مختلفين : يتفقون مع عاهل الحجاز على الاستقلال ، ويعقدون لذلك المعاهدات ويتفقون سراً مع الفرنسيين على استغلال العرب لمصلحتهم هم ، وتقسيم البلاد العربية الى مناطق نفوذ بين الانجليز والفرنسيين ، فهم يدعون العمل على استقلال العرب ظاهراً ، وقتلهم باطناً ، فكانوا كمن يعيشون مع الذئب ويبكون مع الراعي . ومحال أن تبقي هذه الامور سراً مكتوماً ، فلما تكشفت للعرب ثاروا ثوران من خدع ، ثم افاق من خديعته . وكان انكشاف هذه الخديعة سبباً كبيراً في تنبه الوعي القومي عند العرب ، وتيقظه الى انه لا يقع في خديعة مثلها ، وفهمه بعض الاعيب السياسة وحذره منها وعدم الثقة بوعود الدول المستعمرة .

وهكذا علمتنا الحوادث أنه رب شر جلب نفعاً ومع ذلك ، فقد ظل العرب يخدعون خدعاً مختلفة ، وكلما فهموا خدعه ظهرت خدعة اخرى مخالفة .

ومن الغريب ان الامر بدأ بانفصال العرب كتلة واحدة ، ثم انقسمت العرب الى دول تبعاً للفكرة القومية . ثم عادوا يحاولون ان يكونوا كتلة ، او على الاقل ان تكون بينهم روابط قوية تشبه التكتل ، وكونوا الجامعة العربية .

والسبب في ذلك ان الدولة العثمانية كانت تعتز بأنها دولة اسلامية ، فترى انها من الحق ان تخضع الدول الاسلامية لحكمها ، وكان من ذلك الدول العربية . ولذلك كانت تعامل المسلمين من العرب احسن من معاملة المسيحيين . والمسلمون من جانبهم كانوا يحبون الارتباط بالدولة العثمانية للعاطفة الدينية ، ويدعون للخليفة العثماني في صلاة الجمعة . ولكن من الاسف ان العثمانيين كانوا يعتزون بدمهم التركي . ولا يأبهون بالعرب ، مسلمين كانوا او مسيحيين . فكانوا الولاة على البلاد من الاتراك ، حتى الولاة على البلاد العربية ، فبدأ العرب من مسلمين ومسيحيين يبادلون العثمانيين بغضاً ببغض ، وحدثت احداث قوّت هذه النزعة العربية ، واخذ العرب يفكرون في ماذا يعملون : بعضهم يسعى لاقامة خلافة عربية خاصة بهم ، وبعضهم يطالب بالمساواة بين الترك والعرب ، ورد الحقوق المهضومة الى العرب ، وبعضهم يدعو الى استقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية ، وبعضهم يدعو الى طلب الحماية من دولة اوروبية ، فلما اعلن الدستور في الدولة العثمانية ، تحررت الصحف ، وصار يكتب العرب كما يشاءون ، ويجذون اعضاءهم وافكارهم ، ويطالبون بالحريات الخاصة ، كما ابيحت الحريات العامة . وظهرت كتب تنادي بهذه النزعة العربية مثل كتاب « يقظة الامة العربية في آسيا » بالفرنسية ، تأليف نجيب عازوري . وانقسمت الدولة العثمانية الى احزاب ، كحزب الاتحاد والترقي ، وحزب الحرية والائتلاف ، مما اثار الخلاف بينهم . ولكنهم كلهم ذوو نزعات تركية لا عربية .

ومما اغضب العرب ان الدولة العثمانية لم تول أي اهتمام للغة العربية ، فكان ابناء العرب يتعلمون في المدارس الحكومية التي لغتها الرسمية : التركية . فلم يكن العرب يتعلمون الا ما يتعلمه الاتراك في الولايات التركية . وحدثت احداث كثيرة كتلت العرب ، منها غلطات سياسية ، غلطها العثمانيون مثل اعطائهم امتيازات لدول اجنبية في الولايات العربية ، ومثل ضعف الدولة العثمانية في الدفاع عن طرابلس ، وقيام ثورات كثيرة كثورة الالبان والبلقان ، مما جعل العرب يفكرون كثيراً في نفسهم ، واصلاح حالهم . وأخذوا يعملون سرا وجهراً الى ان وقعت الحرب العالمية الاولى ، فكان مما فكر فيه العرب الانضمام الى الدولة

الانجليزية ومساعدتها في الحرب ، اعتماداً على وعد انجلترا لهم باستقلالهم بعد الحرب فكان مما اغضب الاتراك جداً إذ رأوا أن العرب ينصرون خصومهم ، خصوصاً وأن خصومهم ليسوا مسلمين مثلهم ، وزاد الامر سوءاً مافعله جمال باشا من القبض على كثير من زعماء الاصلاح والمنادين للدعوة العربية ، واعدامهم في ساحة الشهداء . وكان يتزعم هذه الحركة السلطان حسين ملك الحجاز ، وكان امل الدعاة ان يكون العرب أمة واحدة . عليها ملك واحد ، ولكن كما قلنا ، اتفقت انجلترا وفرنسا سرا على تقسيم البلاد العربية فيما بينها ، فلما انتهت الحرب ظهر هذا التآمر ، ووضعت لبنان وسوريا تحت النفوذ الفرنسي ، ووضعت العراق تحت النفوذ الانجليزي . وبقيت مصر تحت النفوذ الانجليزي ايضاً . ولم يكن المستعمرون من الانجليز والفرنساويين يرضون عن تكتل العرب ، اذ يكونون قوة مخيفة ، فمزقوا البلاد العربية ، بل مزقوا الدولة الواحدة إذ قسموا سوريا الى جملة ولايات وشجعوا القومية الامية « بأن تستقل مصر بنفسها ، وكذلك سوريا ولبنان ، والعراق وكذلك كان . ولاننسى ان الادب من شعر ونثر وكتابة صحفية وروايات وتمثيلية واذاعات عربية كل ذلك خدم الفكرة العربية . فقد اكثر المؤلفون في التأليف في هذه الموضوعات ، مما كون مجموعة كبيرة من الكتب ، من اول عهد الكواكبي في تأليفه « ام القرى وطبائع الاستبداد » الى غيره من الكتب . وبعد ان استقلت كل امة بنفسها وان كانت تختلف في مقدار استقلالها ، فبعضها مستقل تماماً وبعضها مستقل بعض الاستقلال وبعضها تحت الحماية أحست كل امة منها بالحاجة الى تكتلها مع الامم الاخرى ، أو على الاقل ، ايجاد العلاقة القوية بين بعضها وبعض . فكان من هذا كله الجامعة العربية ، أو على الادق « جامعة الدول العربية » .

وشعرت بعض الدول هذا الشعور التام أيام الحرب العالمية الثانية . وشجعت إيجاد هذا التكتل لانه كان من مصلحتها .

وقد تأسست الجامعة بموجب ميثاق معروف ، وقد توالى على الجامعة العربية احداث من نجاح وفشل ، وصواب وخطأ . وكان مما أساء سمعتها مع الاسف كارثة فلسطين . ومن أجل هذا انقسم الناس فيها اقساما ، بعضهم يرى ان الجامعة

العربية وإن وقعت في اخطاء ، فانها نافعة يجب بقاؤها ، مع تدارك اخطائها ، وفريق يرى ان الخير في عدم التكتل ، واهتمام كل امة بشؤونها الخاصة . ومن ناحية اخرى يرى بعضهم الاتحاد القوي بين الدول العربيـــة ، فبعضهم يرى استقلال كل امة بنفسها ، مع إيجاد علاقات قويه بين بعضها وبعض . وربما كانت الشعوب أميل الى هـذا التقرب . ومما زاد الامر ان بعض الدول الاوروبية تدخلت من حين لآخر تدخلا يفوت الغرض من فكرة الجامعة العربية . وأظن أن الزمن كفيل بزيادة الوعي القومي . واذا زاد امكن تلافي هذه الاخطاء ، والسير في الوجهة الصحيحة .

* * *

اصبح كل عربي في الغالب ينتسب الى وطنه الخاص ، فهذا مصري وهذا سوري ، ثم ينتسب الى العروبة ، فيقول انا عربي ، مقابل فارسي اوهندي او غير ذلك . وقد ألجأ الى ذلك ، اعني الانتساب الى العرب اشياء هامة .

الاول : الحنين الطبيعي الى من يشاركك في اللغة والتاريخ والثقافة . فالعرب عموما يتكلمون اللغة العربية ، ويتثقفون ثقافات متقاربة ، جزء منها الثقافة الاسلامية القديمة . وقد مرت عليهم حوادث مختلفة ، قربت فيما بينهم ، كالحروب الصليبية ، والخضوع لسلطان واحد ، ونحو ذلك .

الثاني : ماتجنيه كل امة من المنافع باشتراكها مع الامم العربية الاخرى ، مثل ان تكتلها يعلي من شأنها امام الاجانب ، ويجعل كلمتها مسموعة ، ويجعل التعدي على احداها ، يحسب له الف حساب ، واذكر انه كان لي صديق مثقف ثقافة واسعة كان لايؤمن الا بمصريته ، فلما استدعي مرة للاشتراك في هيئة الامم المتحدة في امريكا ، رأى كيف يتعاون العرب ، وكيف ان الاتحاد معهم يكسب بلاده قوة ، اكثر مما انفردت ، ولمس ذلك بحواسه كلها ، وعاد من امريكا وهو يؤمن بالعروبة وبالاتحاد بعد ان كان يكفر بهما . هذا الى الفوائد الاقتصادية مثل ان الكتاب العربي القيم اذا طبع في بلد ، لم يعتمد على بلاده فقط ، بل اعتمد على البلاد

العربية الاخرى ، بل ربما كان أكثر . ومثل الافلام السينمائية والروايات التمثيلية والعروض التجارية .

ثالثاً : لانسى أن الروابط مبنيه على العواطف والشعوب اكثر مما هي مبنية على العقل . فالعربي يشعر نحو العربي الآخر بعاطفة أقوى كالمصرى إذا كان في بلاد لبنان او بين السوريين وهكذا ، كل هذا جعل الفائدة ظاهرة من ان يكون الانسان مرتبطاً ببلده ، ومرتبطاً بالعروبة ، وهذا ما دعا الى وجود الجامعة العربية .

ولكن لانكر أنه حدث بعض أخطاء في تصرفات الجامعة . من اوضحها التصرف في حوادث فلسطين ، كما لا ننكر أن المدى لايزال فسيحا حتى تنضج الفكرة العربية ، وان هناك موانع تمنع من تمام نضجها ، لابد من التغلب عليها ، من ذلك ما يلمسه الانسان من تنافر بين الحكومات . ولا نريد التفصيل في ذلك ، بل يكفي أن نقول : أن الشعوب العربية ، قد تكون متحدة الميول ، متحدة في الاتجاه ، ولكن الحكومات بسبب نوازع الحكام المختلفة قد تتضارب ولاتتفق ، كما دلت على ذلك التجارب . وأحياناً تتعارض المصلحة القومية للامة مع المصلحة للجامعة العربية فلو لم تكن هناك تضحية كل امة حتى تتغلب على هذه المتناقضات لم يتم الاتحاد . وهناك عوائق اخرى خارجية ، فقد تتعارض اتجاهات الامم الخارجية في العلاقات الاجنبية . فيصرح ممثلو امة عربية بما لايتفق مع تصريح ممثلي أمة عربية اخرى وهكذا ، فما لم تتخذ كلتها وتتفق سياستها ، لا يمكن نجاحها كذلك . وربما كان من أهم الاسباب أن تكون أمة عربية لها علاقة اقتصادية لدولة اجنبية ، على اساس البترول اونحوذلك ، فلا تحب ان تجابهها بمطلب قد يتنافى مع مصلحتها الاقتصادية ، فتحاول الهرب من الميدان ، وفي حرب فلسطين شاهد على ذلك ، فقد أبدت الصهيونيين امريكا وانجلترا وكان مقتضى الحال ان تقف كل الدول العربية في وجه هذه الامم التي تناصر الصهيونيين ، ولكن رأينا بعض الامم العربية لم تتخذ أية خطوة عملية في مقاومتها ، وكل الدول العربية لم تتخذ أي عمل جدي حاسم حازم . وبقيت العلاقات بين بعض الدول وهذه الحكومات المناصرة للصهيونيين كأحسن ما يكون ود وصداقة . وها نحن اليوم

نرى سياسية فرنسا ومراكش والجزائر سياسة عنيفة قاسية ظالمة ، ثم لاتزال علاقات بعض الدول العربية بفرنسا على احسن ما يكون . فلا بد من ان يتنبه الوعى القومي الى هذا حتى نبلغ الغاية . وربما كان وعى الشعوب في هذه الامور خيراً من وعي الحكومات .

وقد عودتنا الدول الغربية أنها لاتفهم الحجج المنطقية ، وإنما تفهم القوة ، وتفهم الموقف الحازم الحاسم . فلو فهمت أمة غربية ان العرب يحرمونها من امتيازها ، ولا يعاملوها معاملة لينه ، ولايحترمون معاهداتها اذا هي صممت على ظلم أية دولة عربية أخرى لكان في ذلك النجاح الباهر للعرب ولكن الحكومات لاتقدم على ذلك . ويعتقدون انهم ضعفاء بجانب هذه الامم الغربية ، وهو مركب نقص فظيع يجب ان يداوي . وليست القوة منحصرة في الاسلحة المادية ، بل إن اموراً معنوية كثيرة قد تؤدي الى النجاح أمام الاسلحة إذا استخدمت بحزم وإجماع .

لقد دخلنا حرب فلسطين وعزمنا على ان ننقذها ، وأعلنا الحرب على الصهيونيين ، ثم لم نضع خطة موحدة ، بل كان كل قوم يتجهون اتجاها مخالفا لاتجاه الآخر . وحتى إذا توحدت الخطة ، لم ننقذها ، كما تقتضي الوحدة . وبمجرد ماعرضت علينا الهدنة ، قبلناها صاغرين . واذا اجتمعت الحكومات العربية تكلم كل ممثل كلاماً معسولا روعيت فيه المجاملات الدبلوماسية أكثر مما روعيت الصراحة الخلقية .

وربما كان من اكبر المشاكل ان الدول العربية كلها ليست على درجة واحدة من السلم الاجتماعي ، فبعضها يفوق بعضاً في ذلك . والتفاهم إنما يتم عند التقارب في العقلية . فاختلاف الامم يجعل التكتل غير منسجم ، وهي ايضاً ليست على درجة واحدة من الاستقلال في التصرف ، فبعضها أرقى من بعض وبعضها بحكم مركزه السياسي مضطر ان يخضع للتوجيهات الاجنبية ، والاوقع في حرج .

هذه بعض أمثلة : من عوائق تقدم التكتل والوقوع أحياناً في الفشل ،

ولكن ليس معنى هذا اليأس من النجاح في المستقبل ، فكل التكتلات تقريباً مرت بمثل هذا الدور . ثم ازداد الوعي القومي نضوجاً ، حتى اضطر الحكومات المتناقضات المختلفه أن تنزل على إرادتها ، وقد يحدث في العالم من الاحداث ما يسرع الى انضاج الوعي ، واتجاهه اتجاهاً صحيحاً ، حتى ليقطع التاريخ في زمن قصير . والعالم الآن لا يتحمل الجبن والتراخي في مزاولة الامور . وقد رزق الله أمة بزعيم قوي الشخصية ، كما رزق المانيا بيسمارك وكما رزق ايطاليا بمزيني . فليس ببعيد ان يرزق العالم العربي بزعماء يوحدون العرب أتم توحيد كما توحدت ايطاليا والمانيا ويدفعون الشعوب العربية الى التكتل والاتجاه الصحيح ، ويتغلبون على عوامل الفساد فيعيدون للعرب مجدهم القديم . وليس ذلك على الله ببعيد .

واهم من الامل في الزعماء الامل فى تصحيح الاخلاق القومية واصلاحها ، فانه ينخر في عظام العرب الانقسام الى طبقات، حسب المال من غني جداً ، وفقير جداً ، وحسب الثقافة من عالم جداً ، وجاهل جداً ، وحسب الجاه ، جاه المنصب وجاه الاسرة ونحو ذلك . وقد مر على العالم العربي زمن طويل كانوا فيه عبيداً للحكام وللطبقات العليا من اى صنف كان. ثم اخذنا هذه الايام نقرب بين الطبقات ، ونشعر معنى الحرية ، ونكافح اخلاق العبودية . ونشعر بالخلق الاجتماعي محل الخلق الانانى ، واخذنا نتعاون ونشعر بالمصلحة العامة ، ونشعر بخدمة الصالح العام ، ونحن في اول الطريق لذلك الاصلاح ولكننا مع هذا نرجو أن يرقى ويبقى حتى يتم نضجه . ونعتقد ان الرقي الاخلاقي في هذه الناحية يساعد على التكتل ويساعد على الكرامة، والانفة من الاستعمار، ومن تدخل الاجنبي. ونعتقد أن نجاح بعض الامم الشرقية في الوصول الى اهدافها وبلوغها استقلالها ، سيحفز الامم الاخرى إلى ان تسير سيرها ، وتحقق استقلالها حتى يشعر العالم الغربي ان ليس من الخير ومن الممكن استعباد العرب بأي شكل كان، بل يشعرون أن من الخير أن يضعوا يدهم في يدهم ، وأن يشركوا العرب في البناء معهم ، والعمل لخير الانسانية جمعاء . والله الهادى الى الصراط المستقيم .

المحاضرة السابعة

في مهب الريح

للاستاذ ميخائيل نعيمة

= القيت بتاريخ ٨ ايار سنة ١٩٥٣ =

من التشابيه المألوفة حتى الابتذال تشبيهنا الشيء بالريشة اذا هو بالغ في خفة الوزن . ثم تشبيهنا ماليس على شيء من الاستقرار بريشة في مهب الريح وإني لاستعين بالتشبيه الاخير لانقل الى اذهانكم صورة العالم كما يتراءى لي في هذه الايام . فهو في نظري ريشة ـ واخف من ريشة ـ في مهب الزعازع الهوج التي تجتاحه من كل فج وصوب .

ماعرفت البشرية على مدى تاريخها الطويل فترة من الارتباك ، والقلق ، والذعر ، وتنرد القلب والذهن كالفترة التي تتخبط في دياجيرها اليوم . ولا هي شعرت يوماً بأسس كيانها تتشقق وتميد الى حد ماتشعر اليوم . ولا هامت على وجهها تفتش عن مخارج من مآزقها فلا تجد إلا مآزق تفضي بها الى مآزق ، حتى ليخيل الى من يرقب حركاتها وسكناتها ويصغي الى ضجيجها وعجيجها أنها فقدت رشدها ، وافلت زمامها من يدهـا ، فما تدري اني تتجه ، وبمن او بماذا تستغيث .

لن اعطيكم مثلا على ذلك ما تشهدونه من صراع دام وغير دام بين مذاهب العالم من سياسية واجتماعية ودينية وسواها . وأعطيكم مثلا هذه السيول الجارفة من الدعاوة للسلم والحرب في آن معاً . فمن على منبر تلك المؤسسة الضخمة المفككة الاوصال التي لقبوها تهكماً بـ « الامم المتحدة » ـ من فوق ذلك المنبر وحده تنهل شلالات ، ولا شلالات نياغرا ، من الخطب الرنانة . وكلها يمجد السلم ويدعو امم الارض الى التمسك به . تاهيكم بما يفيض من منابر المعابد والمدارس ، ومن حقول الصحف ، ومن افواه المذيعين ، ومن شفاه رؤساء الدول ووزرائهم . حتى لكأن العالم يوشك ان يدخل ذلك الفردوس الذي وعدت به الاديان معشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات . فلا حروب في الارض بعد اليوم ، ولا عداوات بين أسودها وابيضها ، وأصفرها واسمرها ، وبين حاكمها ومحكوميها ، وجائعها ومتخمها ، وملحدها ومؤمنها . بل هنالك تساهل ، وتفاهم ، واخوة وتعاون وسلام لايشوبه خصام .

إلا انكم ما تكادون تنتشون بانغام السلم تعزفها لكم تلك الجوقة ليل نهار حتى تنقلب نشوتكم قشعريرة اذ تسمعون تلك الجوقة بعينها تعزف لكم الحان الحرب ، وبمثل الحماسة التي تعزف بها أنغام السلم ـ بل اشد . فساسة العالم الذين ملأوا العالم تسبيحاً للسلم هم هم الذين ملأوه تجديفاً عليه . فقد هبوا في كل مكان يحثون الناس بالوعد والوعيد على الاستعداد للحرب . وإن انتم سألتموهم بأية حيلة وبأي منطق يبررون التناقض الفاضح ما بين اقوالهم وافعالهم ، فيبشرون بالسلم اذ هم يعدون عدة الحرب ، اجابوكم بكل صفاقة وجه أنهم لا يروجون للحرب حباً بالحرب بل حفاظاً على السلم . وذلك يعني انهم يرهقون الناس بالضرائب ، ويبتزون منهم جناهم ، ويسوقونهم سوق الانعام ليدربوهم على فنون التقتيل والتدمير ، ويطردون الراحة والهناء والامل من قلوبهم وافكارهم ومساكنهم باذرين مكانها الخوف والشك والقلق ، ويبنون الاساطيل البحرية والجوية ، ويكدسون القذائف الجهنمية لا لينتهكوا بها حرمة السلم بل ليقيموا منها سداً منيعا بين الحرب والسلم وبعبارة اخرى ، انهم يهولون على الحرب بأحب الاشياء الى قلب الحرب ـ بالمدفع والقنبلة والدبابة ، وغيرها من وسائل التخريب التي هي خبز الحرب ولحمها ودمها وعضلها . انهم يهولون على الذئب بجماعة من الحملان . وعلى الهر برهط من الفئران!

لعمري ان في ذلك لمنتهى الاستهتار بالعقل والمنطق ، ومنتهى الاستخفاف بالناس وآمالهم واقدامهم . فهل من يصدق أن المدفع الذي ما وجد الا لتمزيق السلم وازدراده يصلح ان يكون حارساً للسلم ؟ ام هل من يصدق ان السلم يقتات ويحيا بالقذائف الجهنمية المكدسة في مستودعات الدول ، والحرب التي ابتدعتها ما حشتها بغير السم الزعاف للسلم ؟ قد تكون الزرافة في عرين الاسد ، والشاة في وجار الذئب ، والفأرة بين براثن الهر أوفر أمناً على حياتها من السلم في فوهة المدفع ، وفي جوف الدبابة ، او في قلب القذيفة الذرية . وقد يصلح ابليس قيما على الجنة قبل ان تصلح الحرب قيمة على السلم .

مررت ذات يوم بجماعة من الصبية يلعبون في ظل شجرة باسقة . فوجدتهم في هرج ومرج عظيمين . ووجدت احدهم في أعلى الشجرة وقد راح يشد حبلا الى جذع من جذوعها . ووجدت الذين على الارض قد اخذوا بطرف الحبل

الآخر وانبروا يتسابقون الى احكام ربطه حول عنق هرة رقطاء . وسمعت الذي في اعلى الشجرة يصيح بالذين على الارض : « شدوا ! شدوا ! » وعندما سألتهم عن الجريمة النكراء التي اقترفتها تلك الهرة المسكينة فاستحقت من اجلها الشنق اجابني اصغرهم بمنتهى الجدوالبساطة « هيدي مرجوحة ! » عندئذ ادركت كيف تعبث الدعاوات الخبيثة بالمفاهيم البشرية فتغدوا المشانق اراجيح في لغة انسياسة ويصبح الاستعداد للحرب خير ضمان للسلم .

لست ارى عظيم فرق بين ذهنية اولئك الصبية وذهنية ساسة العالم وقادته فهم في تسابقهم الجنوني الى التسلح يحكمون الخناق على السلم يوماً بعد يوم ثم لايخجلون من ان يجاهروا بانهم يفعلون ما يفعلون لا في سبيل الحرب ، بل في سبيل السلم والترفيه عنه والحفاظ عليه . وقد جرهم هذا المنطق الاعوج الى آخر اشد اعوجاجاً منه . اذ خلقوا خرافة اطلقوا عليها اسما غراراً عليه مسحة من المنطق . اما ذلك الاسم فهو « توازن القوى » . ومعناه ان معسكرين متخاصمين ، اذا توازنت قواهما الحربية ، بان كلاهما يرهب خصمه فلا يجرؤ على مهاجمته ، وهكذا يبقى السلم في مأمن من الحرب . واذ ذاك فعلى سكان الارض ، اذا هم شاؤوا سلماً دائماً ، ان يحفظوا التوازن في قواهم الحربية الى الابد . وفي ذلك من التضليل ما فيه .

ولو فرضنا ان في استطاعة البشر حفظ مثل ذلك التوازن الى الابد لكان الناتج عنه اشد هولا على الناس من الحرب . فأية دولة تستطيع ان تمضي في التسلح عاماً بعد عام وعينها الواحدة على جارتها مخافة ان تسبقها خطوة ، وعينها الاخرى على خزينتها التي تنضب يوماً بعد يوم ، وعلى شعبها الذي أرهقته الضرائب فبات يمشي حثيثاً الى الفقر فالجوع فالفناء ؟ لهذا اذا تيسر للناس ان يقيموا مثل ذلك التوازن الا انه في الواقع توازن مستحيل ولا وجود له البته الا في اوهام القائلين به والداعين اليه .

انا اذا وضعنا كمية من الشعير في كفة الميزان ووضعنا كمية مثلها في الكفة الاخرى استطعنا باخذنا منها او الاضافة اليها ان نحصل على توازن تام بين الكفتين

وايقنا ان كمية الشعير في الواحدة تعادل الكمية في الاخرى بغير زيادة او نقصان ، اما التوازن في القوى المادية والمعنوية وفي ظروف الزمان والمكان ، بين معسكرين متخاصمين فمنذا الذى اوتي من العلم والحكمة ما يخوله البت في اللحظة التى فيها يتم ذلك التوازن ؟ واذا تم التوازن ـ وذلك مستحيل ـ فأين الانسان الذي يستطيع ان يتنبأ بمدى استقرار ؟ فهو إن دام لحظة لن يدوم شهراً ، إذ ان العوامل التي تساعد على هدمه لاتقع تحت حصر . واكثرها لاسلطان للناس عليه فمصادرها خفية ، والقوى التي تخلقها ثم تسوقها الى الناس على غفلة منهم ما برحت بعيدة عن متناول الناس . فظهور زعيم جديد او اختفاء زعيم قديم ، وانتشار مذهب ديني او سياسي كان في مطاوي الغيب ، وسنة قحط او سنة خصب ووباء او زلزال ، واختراع جديد او اكتشاف معدن مجهول ، وثورة هنا او عصيان هنالك ـ كل هذه من الامور التي من شأنها ان تعبث بخرافة « توازن القوي » بين لحظة ولحظة . واذ ذاك فالتوازن الذي ارادوه حصناً للسلم يصبح شركاً له وأي شرك .

اذا كان الزاعمون ان السلم لايصان الا بآلة الحرب ، والا بالتوازن بين آلة وآلة جادين مايزعمون فانها الحماقة الخرقاء . واذا كانوا ـ دفاعا عن مصالح موهومة يموهون ويخاتلون ما يزعمون فانها الجريمة النكراء . وهم سيكفرون عنها بعذاب ولا عذاب جهنم .

اما كان من الاولي بزعماء العالم وقواده ، اذا هم صفت نياتهم للسلم ، ان يستعدوا للسلم قبل استعدادهم للحرب ؟ فالسلم عدته كما ان للحرب عدتها . ان تكن عدة الحرب مدفع وقنابل واثارة ابشع ما في القلب البشرى من عفن البغض والحقد والشهوات السود فعدة السلم قوت للجياع ، وكساء للعراة ، ومأوى للمشردين ، ودواء للمرضى ، وكرامة للمهانين ، وحرية للمقيدين ، ومعرفة للجاهلين ، وانعتاق للمستثمرين من المستثمرين ، وغفران للمذنبين ، وعدل للمظلومين ، واعتراف باطني وعلني بقدسية الحياة البشرية وتنزيهها عن الاثمان ، ثم اعتراف مماثل بان الانسان اخو الانسان وعونه ونصيره اينما كان ومن اى جنس كان ، وبأن الارض ميراث الجميع .

عدة السلم الصدق	،	وعدة الحرب الكذب
عدة السلم الامانة	،	وعدة الحرب الخيانة
عدة السلم الثقة	،	وعدة الحرب الشك
عدة السلم التعاون	،	وعدة الحرب التنابذ
عدة السلم المحبة	،	وعدة الحرب البغض
عدة السلم العطاء	،	وعدة الحرب النهب
عدة السلم التعمير	،	وعدة الحرب التخريب
عدة السلم الايمان بالانسان	،	وعدة الحرب الكفر بالله وبالانسان معاً
عدة السلم الحياة	،	وعدة الحرب الموت

لو ان الناس حاولوا ان يحصروا في الارقام كل ما انفقوه على عدة الحرب في خلال العقود الثلاثة الاخيرة لاغير لضاقت بهم الارقام ولتخدرت من هولها عقولهم ، وانعقلت السنتهم وتعطلت مفاهيمهم الحسابية . فما من ارقام تستطيع ان تؤدي الى اذهاننا المقادير الهائلة من القوى الروحية والمادية التي انفقتها الانسانية على الحربين العالميتين الاخيرتين بصرف النظر عن الحروب الثانوية التي نتجت عنها . فلا الديار التي دمرت ، ولا الاراضي التي عقمت ، ولا الاموال التي هدرت ، ولا الاجساد التي شوهت ، ولا الارواح التي ازهقت ، ولا العيال التي شردت ، ولا الدواجن التي اتلفت ، ولا خطوط المواصلات التي عطلت بقابلة لاي حصر . فكيف بالقلوب التي احرقها الحزن وبالمآقي التي قرحها الدمع ؟

وانتم لو سألتم هذه الانسانية بعينها ماذا الذي انفقته في خلال العقود الثلاثة الاخيرة على عدة السلم لكان جوابها هزة من كتف ، او قلبة من شفة ، او شقلة من حاجب . ذلك لانها ما انفقت شيئاً على الاطلاق فهي تستغرب منكم مثل ذلك السؤال وتعده ضرباً من البلاهة . ولاغرو . فما سمعنا ، منذ ان قامت الدول في الارض وراحت تنظم اعمالها الداخلية والخارجية فتخلق الوزارات للنهوض بتلك الاعمال ـ ماسمعنا بدولة واحدة أوجدت لها وزارة للسلم ، في حين انه ما من دولة على وجه الارض ـ مهما صغر حجمها وشأنها بين الدول ـ الا لها وزارة للحرب . والاعتمادات التي تخصص لوزارات الحرب في كل مكان

هي اليوم مضرب المثل في التضخم والسخاء . حتى ان الكثير من الشعوب يقتر على نفسه في المأكل والمشرب وغيرهما من مقومات الحياة ليكفل لجيشه المزيد من الزاد والعتاد . اما السلم فما سمعنا بعد بشعب جاع في سبيله ، او بدولة فرضت على نفسها التقشف لتتذوق لذة السلم وبركاته .

قد ترشقونني بالغلو في الكلام فتقولون ان الدول لا تقوم بوزارات الحرب وحدها . فهنالك وزارات الصحة والزراعة والاقتصاد والمعارف والمواصلات وغيرها ، وغيرها ، وكلها يهدف الى الاعمال العمرانية . فهي حرية بأن تحسب من عدة السلم . وياليت الواقع كان مصداقاً لما تقولون . الا انه ، على النقيض من ذلك يشهد بأن الحرب ما مشت يوماً في الارض الا جرت في ركابها كل جهود الناس ، وكل اقداسهم . فهي التنين الذي لا يشبع ، والبئر التي لا تمتلىء . حتى الدين الذي كان من المفروض فيه ان يكون اقوى دعامة للسلم لا يلبث ان يحمل العلم ، وينفخ في البوق ، ويدق الطبل ويمشي في الطليعة حالما تكشر الحرب عن انيابها للسلم .

لعل الظاهرة الوحيدة التي تستحق أن تسجل لحساب السلم هي الجوائز التي تمنح من حين الى حين باسم السلم . ولكنها ، اذا قيست بآلاف الآف الملايين التي تنفق في سبيل الحرب بدت كنقطة من الزيت في بحر من الزئبق ، او كحمامة منتوفة الريش بين سرب من الغربان ، او كبنفسجة ذاوية في حقل من العوسج .

منذ ان أودى قابيل بحياة أخيه هابيل والسلم شريد طريد في الارض يطلب ملجأ فلا يجده ، والحرب سيدة الارض بغير منازع . تغفو فترة من الزمن ثم تستفيق وقد تضاعفت شراهتها للدم ومقدرتها على التخريب . فيحسب الناس غفوتها سلماً فما هي بالسلم . إن هي الا حشد جديد لقوى جديدة وتحفز لوثبة اشد هولا من التي سبقتها . وهكذا راحت الحرب تفتن في توزيع قواها ، وتنمية مواردها ، وتنظيم حركاتها على مدار العصور حتى بلغت ما يكاد يكون ذروة الكمال في هذا العصر ، وهو الكمال الذي يجعل منا ومن دنيانا ريشة في مهب

الريح . اذ انه ينذرنا ، ان لم يكن بالفناء التام ، فبا لعودة الى عالم الغاب ، ونظام الظفر والناب ، وبالتخلي عن بدائع حضارة خلقناها بكد الجفن والدماغ وارهاق العظم والعضل ، وشددناها بعضها الى بعض بنياط القلب واشواق الروح .

اجل نحن اليوم ريشة في مهب الريح . وقد بات لزاماً علينا ، اذا نحن شئنا ان نسترد لانفسنا شيئاً من الثبات ، إما ان نزيد في وزن الريشة ، وإما ان نخفف من حدة الريح . أو ان نجترح العجيبتين معاً . فهل من سبيل الى ذلك ؟ ومن هذا الذي سيدلنا عليه ثم يدربنا على سلوكه ؟

من الاكيد ان الذين جعلوا منا ريشة لن يستطيعوا ان يجعلوا من الريشة طوداً . والذين اطلقوا علينا الرياح الهوج لن يكون في وسعهم ان يجعلوا من تلك الرياح نسمات بليلات . اولئك هم القابضون بايد من حديد على ازمة حياتنا الجسدية والعقلية والقلبية ، أتدرون من هم ؟ انهم اسياد الغرب الذي انتقلت اليه زعامة العالم منذ ايام اثينا وروما فما تخلى عنها حتى اليوم الا في خلال فترات قصيرات .

لقد كان من حسنات زعامة الغرب في العالم انها اطلقت العقل البشري من عقالاته ، ثم احسنت تدريبه وتنظيمه ، فاندفع بكل ما أوتيه من قوى هائلة يرود العوالم المحيطة به من فوق ومن اسفل ، يعالج طلاسمها ويفك ما استعصى من عقدها ، ويظهر ما خفي من مكنوناتها . واذا بالارض تتخلى للانسان عن كنوز كثيرة كانت دفينة في احشائها ، واذا بالسماء تبوح له بالكثير من اسرارها ، حتى بات يعتقد ان سيادة الارض والسماء توشك ان تصبح في قبضة يده .

لقد أبطرت الغرب فتوحاته العقلية ، وزادت في ثروته المادية مقادير لا تحصى ولا تعد ، وبسطت سلطانه على الارض من القطب الى القطب ومن المشرق الى المغرب . فبات لايشك قط في حقه بتلك الثروة وذلك السلطان . ولكنه مالبث ان انقسم الى معسكرين يتنازعان ثروة الارض وسلطانها ويتستران في نزاعها باسم العدالة من جهة وباسم الحرية من جهة اخرى . ثم يعمل كلاهما ليل نهار على كسب الانصار والامصار ، بالقوة حيث تنفع القوة ، وبالمال حيث لا يجدي الا المال وبالدعاوات الطويلة والعريضة التي تنفذ الى القلب والعقل حيث لا تنفذ القوة ولا المال . اما انتاج العتاد الحربي من كل اصنافه فيسير على قدم وساق ، بل على

دولاب وجناح . واما تشييد الحصون ، وتدريب الجيوش ، وتصميم الخطط ، وتنظيم القيادات ، وعقد المحالفات ، وبث العيون ، وجس النبض ، وهز الاعصاب من حين الى حين ، والتراشق بالوحول ، والتبجح بالفضيلة ، والتغني بالسلم - فهذه كلها تجري في السر والعلانية ، وبغير انقطاع .

وتنجرف بهذا التيار الهائل جميع دول الارض ودويلاتها ، وفي جملتها دويلات شرقنا العربي . فتمضي تتمرس بفنون النباح والنطاح ، والقدح والذم ، والتضليل والتدجيل ، والتغني بالحق ، والتبجح بالقوة . حتى ان بلداً صغيراً ووادعاً وجميلا كلبنان لا يخجل من ان يعلن الملأ على رؤوس الاشهاد بأن سيفه والقلم (ملء عين الزمن) ولا هو يتورع عن سن قانون يقضي على الطلاب في مدارسه بانفاق ساعات في كل اسبوع على التدريب العسكري بدلا من انفاقها على تثقيف القلب والعقل ورفعها من مخازي الحروب وعبودية الحياة الجندية . وقد لا يتجهم الجو العالمي حتى يعلن لبنان التجنيد الاجباري . أما في سبيل من او لماذا يقدم لبنان بنيه طعاماً للمدفع ووقوداً للنار فعلم ذلك عند الذين جعلوا من حمامة السلم غداءاً لا يلذ له شيء مثلما يلذ له نهش الجيف بمخالبه ومنقاره .

والذي اقوله في لبنان يصح قوله في سائر الدول العربية . فما ادري بأي سحر سطت علينا اراجيف الغرب في دعاواته ومهاتراته حتى بتنا نعتقد ان قوة الامم في حناجرها . فلا نشبع من التحدث عن تعشقنا للاستقلال والحرية ، وعن تفانينا في سبيل الكرامة القومية ، وعن الشهامة العربية ، والكبرياء الشرقية ؛ وعن امجاد اسلافنا وجليل ماقدموه من الاقوال والاعمال للحضارة البشرية . لقد انجرف الجميع في تيار هائل من التبجح بالماضي ، كأن التبجح بما كان يغير شيئاً في ماهو كائن . وكأن كسيحاً يستطيع ان يستغني عن عكازه اذا هو ردد على مسامع الناس بغير انقطاع ان اباه او جده كان امير الفوارس وسيد الميدان .

لئن كانت لنا في حافظة الزمان السحيق صفحات مشرقات بالعدل والبطولة والنبل والاباء والايمان بقدسية الحياة وجمال منبعها الالهي فأن لنا بجانبها مجلدات

سواداً تنضح بالظلم والجبن والخساسة والذل والكفر بالحياة ورب الحياة . فليس من الصدق ولا من الرجولة في شيء ان نذكر الصفحات وننسى المجلدات . ونحن اذا فعلنا ذلك جنينا على انفسنا وعلى بنينا وبني بنينا ، وكنا كمن يستر عريه بثوب مستعار ، او كمن يداوي الرمد بذر رماد في العين . والسرطان بجرعة من الافيون فمن شأن تغنينا بماضينا ان يصرف همنا عن خزي فينا الى مجد ليس لنا .

إنني رجل عربي ومن صميم الارومة العربية . ولكنني لست ارى في انتسابي الى العرب مايرفعني فوق غيري من الناس . فلا شرف العرب يشرفني ان كنت خسيساً ، ولا خزيهم يخزيني إن كنت شريفاً بل تشرفني سيرتي وسريرتي ، وتخزيني اقوالي وافعالي . وعلي ، اذا انا اخلصت الحب للعرب ، ان اشرفهم بما اقول وأفعل بدلا من ان اتشرف بما قالوه وفعلوه .

ان صدري على رحابته ، ليضيق بقوم بعدت الشقة بين السنتهم وقلوبهم . فهم يقولون غير ما يشعرون ، ويشعرون غير ما يقولون . ثم يفعلون غير ما يقولون ويشعرون . فبينا السنتهم تنشد اعذب الشعر في الحرية والكرامة الانسانية تراهم مكنوا في قلوبهم للذل والعبودية . فهم يزحفون على بطونهم ويعفرون جباههم امام ذي سلطان او جاه او مال ، وهم يتجبرون على من دونهم ويتكبرون . وذلك ، لعمري ، هو منتهى الذل والهوان . والذل والهوان متفشيان اليوم في الجسم العربي تفشي السرطان . وهو السرطان الذي لاتنجع في استئصاله تعاويذ الدعاوات ولا الثرثرة عن امجاد السلف .

واي امجاد السلف يتغنى به الخلف راجين ان يبعثوا بذلك هما تراخت ، وان يجمعوا كلمة تشتتت ، وان يرفعوا الى فوق ابصاراً منكسة الى اسفل ؟ تلكم الامجاد هي سيوف خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وطارق بن زياد . هي الاعلام العربية التي خفقت في سالف الازمان من حدود السند حتى حدود الغال . انها الرغوة التي أثارها العرب في اندفاعهم من قلب الجزيرة شمالا وشرقاً وغربا . انها الرغوة التي أثارها العرب في اندفاعهم من قلب الجزيرة شمالا وشرقاً وغرباً . ولكنها ليست المعجزة التي جاء بها العرب ، والتغني بها لاينفع العرب ولا العالم في

شيء . اما معجزة العرب الكبرى فهي القرآن . وهي وحدها التي تستطيع ان تجعل من العرب قوة أين منها قوة الاساطيل البحرية والجوية والقنابل الجهنمية ، واين منها قوة المال والرجال . فالاساطيل للصدأ ، والرجال للموت ، والمال للزوال . اما معجزة القرآن فللبقاء . ذلك لانها اقامت للعرب ـ ولغير العرب ـ هدفاً من حياتهم ، وكانوا بغير هدف ، واختطت لهم طريقاً الى الهدف وكانوا بغير طريق ، وما اكتفت بأن أقامت لهم هدفاً واختطت طريقاً ، بل انها برهنت لهم بحياة النبي وصحبه أن ذلك الهدف مستطاع بلوغه على من سار في الطريق . فحياة النبي وخلفائه الاولين مليئة بالعبر التي تهدي الناس سواء السبيل فلا تتركهم ريشة في مهب الريح .

لو لم يترجم النبي وصحبه القرآن الى أفعال لما كانت المعجزة معجزة ولكنهم وقد امتلأت قلوبهم وعقولهم ايماناً ، ما ترددوا في ترجمة ايمانهم الى أعمال واقوال تتوافق كل التوافق مع ذلك الايمان . واني لاذكر في ما اذكر من الاخبار النبوية خبر شاة ذبحها اهل البيت في غياب النبي وفرقوها على المعوزين . وعندما عاد النبي اخبرته عائشه بما كان وأضافت انهم لم يبقوا لانفسهم من الشاة الا الكتف . فكان جواب النبي لها « لقد بقيت كلها إلا الكتف » . إنه لجواب حوى من البساطة والبلاغة والحكمة مالم تحوه مجلدات من الفلسفة : بقيت كلها الا الكتف . ومعنى ذلك اننا نكسب ما نعطية ونخسر ما نمسكه . فالذي ننفقه على الغير من اموالنا وقلوبنا وافكارنا واراوحنا يحسب لنا . والذي ننفقه على انفسنا يحسب علينا فنحن مطالبون بسوانا قبل ان نطالب بانفسنا . ونحن ، وكلنا عيال على الله ، لانستحق نعمة من نعم الله إلا إذا ابحناها من صميم القلب لغيرنا من عيال الله . فهل من يدلني بعد ذلك على طريق الى الاخاء والسلم والتعاون بين الناس ، وبالتالي والى الحرية ، أقرب من هذا الطريق وأقوم ؟

أجل . ان معجزة العرب لفي القرآن . الا انها أصبحت اليوم وكأنها ليست بمعجزة . ذلك لكثرة ما الفتها الشفاه والعيون والآذان . ومن شأن الشفاه والآذان والعيون انها اذا الفت عجيبة أغلقت دونها القلوب . وقلوب العرب غدت مغلقة دون معجزة العرب منذ ان حكموا دنياهم في دينهم . فهم اليوم يؤمنون بالراديو والرادار ، وبالدبابة والطيارة ، وبالدعاوة والمخرقات ، ثم بالفلس الذي

بتباع كل هذه ـ يؤمنون بها كما لو كانت المفاتيح الى الراحة والهناء والسلام والحرية والكرامة الانسانية . اما المفتاح الذي اعطي لهم في القرآن فجوهرة يتبركون بثمنها ، ويباهون بجمالها ، ولكنهم يتهربون من استعمالها . فكأنها للزينة لا لفتح الابواب المغلقة ، وفك المشاكل المستعصية ، أو كأنها للتسلية والترفيه عن النفس عندما تمل النفس العمل في معامل الفلس والدينار ، او عندما يأخذها شيء من الكلل .

إن تكن هذه هي حال المسلمين مع القرآن فهي كذلك حال المسيحيين مع الانجيل ، وحال باقي المذاهب مع ما عندها من كتب دينية . فالمسيحيون الذين عاشوا خلال ثلاثة قرون اقلية متآخية متضامنة على السراء والضراء ، متمسكة بالسلم ، منكرة على السيف ان يكون حكما بين الناس ، ومضطهدة لذلك من ذوى السلطان في الارض ، عادت في عهد الامبراطور قسطنطين فباعت انجيلها بصك يحميها من الاضطهاد ويضمن لها ان تصبح دين الدولة الرسمي اذا هي امرت أتباعها بالقتال تحت راية الدولة وبذلك تنازلت عن تعاليم مؤسسها حيث يقول : احبوا اعداءكم . باركوا لاعنيكم . احسنوا الى الذين يسيؤون اليكم . وهكذا مشي المسيحيون في جيوش اكبر دولة مستعمرة عرفها التاريخ القديم فجعلوا من مسيحهم امبراطوراً وهو القائل « مملكتي ليست من هذا العالم » ، ووضعوا على رأسه تاجاً وهو الذي ما تكلل رأسه بغير الشوك . وارهقوه بحطام الارض وهو القائل : للثعالب اوجار ، وللطيور اوكار اما ابن الانسان فليس له اين يضع رأسه فباتوا منذ ذلك الحين ودينهم دين في اعناقهم وشاهد عليهم في الارض وفي السماء . وباتوا لذلك ريشة في مهب الريح . وما المدنية التي شادوها ، على كل ما فيها من روعة للعقل والعين والاذن ، بدافعة عنهم جزاء خيانتهم لمسيحهم ، وجزاء ما هدروه وما برحوا يهدرونه من دمع ودم .

الدين في عقيدتي هدف وطريق . اما الهدف فهو انعتاق الانسان من ربقة الحيوان في اسافله والانطلاق به الى الآله الكامن في أعاليه ـ الى المعرفة التي لا يخفاها شيء ، والقدرة التي لا تعصاها قدرة ، والحياة التي يطالها موت . واما الطريق فهو ترويض العقل والقلب ترويضاً لا فتور فيه ولا انقطاع على ممارسة

الفضيلة والاقلاع عن الرزيلة . واما الفضيلة ماهي والرذيلة ما هي فوجدان الانسان كفيل بالتمييز بينها . ولا يطالب احد بخير او يدان بشر الا على قدر ما يميز وجدانه الخير من الشر .

ذلك لايعني الزهد في الدنيا والانقطاع عن التلذذ بمفاتنها وخيراتها البريئة فقد وقعت مرة على خطاب يعزى الى عيسى . ولعله أقصر خطاب وابلغ خطاب في موضوع الدين والدنيـــا اذ قال للدنيا : « من خدمني فاخدميه . ومن خدمك فاستخدميه . » وهو يعني أن من استخدم الدنيا لخدمة الحق ابيح له كل ما في الدنيا . ومن خدم الدنيا لا لاجل الحق بل طمعاً بما فيها من ملذات أصبح عبداً ذليلا لها وظل بعيداً عن حرية الحق .

أعيد القول : ان للدين هدفاً وطريقاً . ولذلك كان الدين بجوهره لا بطقوسه وتقاليده أقوى من ظروف المكان وابقى من تقلبات الزمان . اما العالم الدنيوي بشعوبه وممالكه ، وغاياته المتضاربة ، ونزعاته المتشاكسة ، فلا يوحده هدف ولا يجمعه طريق . لذلك يبقى عرضة للقلاقل والحروب وريشة في مهب الريح والدين ـ كل دين ـ ما انطلقت انواره في العالم الا من الشرق . أفلا قلتم معي :

واهاً لهذا الشرق ما اضعف ذاكرته وأوهن قلبه ! فسرعان ما نسي ميراثه وسرعان ما تخلى عن سلاحه الذى لا غنى ليستبدل به سلاحاً يتأكله الصدأ . وكم كنت اتمنى لو يسترد ميراثه وسلاحه لعله يستطيع ان يرد العالم الى رشده بدلا من ان يفقد هو الآخر رشده في عالم جن جنونه .

لئن احسن الغرب توجيه العقل البشري وتدريبه وتنظيمه حتى بلغ ما بلغ من بعيد الشأو في دنيا الصناعات والعلوم والفنون ، فقد أهمل القلب كل الاهمال والقلب هو مهب العواصف التي تعبث بنتاج العقل ، ومصدر السموم التي تفسد على الناس الاستمتاع بذلك النتاج . وهو ، على ضآلة حجمه ، ذلك العالم الشاسع الذى يلاصق فيه الانسان الحيوان من جهة ، ويعانق الله من الاخرى . وحتى اليوم ما تمكن احد من سبر اغواره السحيقة وتسلق أعاليه الربانية غير نفر قليل من الناس أنجبهم هذا الشرق هداة للبشرية وقادة لخطاها من الحيوان القابع في

اغوارها الى الآله المتألق في أعاليها . اولئك هم انبياء الشرق الذين مروا بالارض مرور الشهب في الفضاء ، ومرور البرق في مطاوى الظلمات فرسموا للناس طريق الخلاص مخطوطا من نور . ومضوا وكأنهم يقولون للناس : «ذلكم هو طريق الخلاص ولا طريق لكم الاه إن سلكتموه نجوتم . وإن لم تسلكوه فلومكم على أنفسكم . ونحن دائماً ابداً بجانب الذين يسلكونه . نمدهم من قوتنا . ونسندهم بافئدتنا . ونصد عنهم هجمات الوحوش وغارات اللصوص ما داموا مثابرين على السير ، وما دامت عيونهم على الهدف البعيد . »

لقد ادرك انبياء الشرق ان من بين الشهوات التي يكتظ بها القلب ولا اكتظاظ الرمانة بالحب شهوة هي بمثابة الشراع للمركب ، والمنارة للملاح ، والدليل للاعمى . وأن هذه الشهوة ـ وسأدعوها « الشهوة الغلابة » ـ اذا انصاع لها الانسان بكل شهواته كان من شأنها ان تبلغ به في النهاية المرتبة المعدة له منذ الازل والائقة باسمى ما فيه من ملكات ونزعات وأشواق . الا وهي شهوة الحياة والحرية . فنحن قبل كل شيء وبعد كل شيء نريد ان نحيا ، وان نحيا طليقين من كل قيد وحد الا من القيود والحدود التي نفرضها على انفسنا وبمل ارادتنا لنستعين بها على بلوغ الحياة التي لا تموت والحرية التي لا تحد .

أجل . انا نريد الحياة ـ نريدها بكل جارحة من جوارحنا وكل نبض من انباضنا ، وكل نفس من انفاسنا ، وكل حركة او سكنة من حركاتنا وسكناتنا . ولذلك نأكل ونشرب ونتناسل . ولذلك نفكر ونتخيل ونعمل . ولذلك نحلم احلاماً ونبصر رؤى ونغالب الارض والسماء لعلنا نمد في حياتنا الى ما لانهاية له . الا اننا نتبرم بكل ما يحد من حريتنا في الحياة . حتى ليرهقنا ان نكون في حاجة الى الاكل والشرب واللباس والمأوى ، ونتمنى لو تصبح حياتنا في غنى عن كل ذلك فلا نحتال على كل عقبة في طريقنا ، ولا ننفك نختصر المسافات ، ونسهل المعقد من سبل المعيشة ، كيما يتاح لنا ان نستمتع بحياتنا حرة الى اقصى حد . ولان مثل هذه الحياة يبدو بعيد المنال على الارض لذلك ترون الانبياء قد وعدوا بها الناس في غير هذا الزمان وعلى غير هذه الارض . وسواء بلغنا تلك الحياة في هذا العالم ام في سواه فالمهم ان انبياء الشرق قد اجمعوا على القول بان في مستطاعنا

بلوغها ، وعلى اعتبار شهوة الحياة الابدية والحرية الكاملة الشهوة الاولى والاقوى من جميع شهوات القلب البشري . فهي الشهوة التي لاتعاند ولا تقبر ، والتي يتوجب علينا ان نجعل من جميع شهواتنا خدماً لها وحشما كيما نستطيع تحقيقها في النهاية . ولن يستطيع تحقيقها الا الصالحون . ولذلك جعلها الانبياء بمثابة الثواب الاكبر للمعيشة الصالحة .

فما هو الصلاح الذي ان نحن سلكنا سبيله وتمسكنا باهدابه بلغنا الحياة التي لايطالها موت والحرية التي لايحد من مداها حد ؟

ذلكم الصلاح هو تحكيمكم شهوات القلب البيض في شهواته السود . وذلك يعني جعلكم الانسان فيكم سيد الحيوان . حتى اذا انعتق الانسان من عبودية الحيوان انطلق من بعد ذلك الى حرية عدن حيث يتضوع دائماً ابداً شذا الالوهة العارفة كل شيء والقادرة على كل شيء وتحكيمكم الانسان في الحيوان لايتم الا بترويض القلب على كبح جماح أهوائه التي من شأنها ان تعرقل الشهوة الغلابة في انطلاقها نحو الحياة والحرية . كأن تقهروا الغضب بالتسامح ، والطمع بالقناعة ، والكبرياء بالوداعة ، والشهوة الحيوانية بالعفة ، وحب الثأر بالصفح ، والخشونة باللين ، والقوة بالعدل ، والرياء بالصدق ، وسوء الظن بحسن الظن ، والنفور بالعطف ، والخوف بالشجاعة ، والشك بالايمان ، والكره بالمحبة الى آخر ما في القلب البشري من سود الشهوات وبيضها .

ان عظمة انبياء الشرق ما كانت بذات بال لو انها انحصرت في القول دون الفعل . الا إنها تجاوزت النصح الى العمل به . فالانبياء ما دلونا على طريق الحياة والحرية الا من بعد ان سلكوه بأنفسهم واستوثقوا من الغاية التي ينتهي اليها . وقد حذا حذوهم نفر من الذين لاسقوهم بارواحهم وأجسادهم فتلقحوا بايمانهم ، والتهبوا بحماستهم ، وتذوقوا مثلهم حلاوة السلم والحياة والحرية . فكانوا الحجة القاطعة والدليل الساطع على صحة ما تلقنوه من معلميهم وعلى مقدرتنا ـ ونحن بشر امثالهم ـ ان نسلك السراط الذي سلكوا ، وان نبلغ الهدف الذي بلغوا .

هذا هو طريق الحياة والحرية ـ وبالتالي طريق السلم ـ الذي اختطه لنا

معلمو الشرق وصحابتهم وحواريهم منذ اجيال واجيال . وذلك من بعد ان سبروا اغوار القلب البشري ، وكشفوا دفائنه ، وتفهموا سائر شهواته وعلى الاخص الشهوة الغلابة . وكل طريق عداه يؤدي حتما الى الموت فالعبودية فالحرب . وانا اذ أجاهر بهذا القول اعلم حق العلم انني اجعل نفسي هدفاً للكثيرين من الناس داخل هذه القاعة وخارجها . وكلهم يتهمني بالرجعية قائلا: « ان هذا الرجل يريد ان يعود بنا القهقرى الى سلطان الدين ورجاله . والدين ورجال الدين هم الذين جنوا على الشرق فبات في مؤخرة ركب الحضارة وكان جديراً به ان يسير في المقدمة . وبات لقمة سائغة يتسابق الى ازدرادها اقوياء الارض ، وكان حرياً بان يكون من القوة بحيث يأخذ الافضل والاشهى من ثمن الارض وشهدها فلا يأكل الغير الا فضلته . . »

اولئك هم الذين مافهموا من الدين الاقشوره . واللوم في ذلك ليس كله عليهم . بل هو في الدرجة الاولى على رجال الدين الذين جعلوا منه سلسلة طقوس وتقاليد قد تدغدغ العين والاذن الا انها تترك القلب بارداً والفكر شارداً والروح في عطش ممض وجوع قتال . اما انا فلا ارضى من الدين بغير لبه . ولب الدين هو النهوض بالانسان من مستوى البهيمة الى مستوى الالوهة . ولست اعرف من كل الطرق التي يسلكها الناس طريقاً يؤدي بهم من الحيوان الى الله غير الطريق الذي اختطه لهم معلمو هذا الشرق .

إن سالك ذلك الطريق ليشعر بأنه اقوى من الزعازع والزلازل . وابقى من الزمان والمكان . وهو المحارب الذي لاينام على الضيم ولا تفل له عزيمة . اما اعداؤه فليسوا من لحم ودم . إنهم الشهوات السود التي في قلبه . وهم اوسع حيلة ، واشد بطشاً ، واثبت قدماً في الميدان من ايما عدو آخر . وهؤلاء يصارعهم عن مصارعة جيرانه واخوانه في الناسوت واعوانه في حربة الضروس ضد نفسه . فلا يستخفه الطيش والحمق الى حد ان ينصرف عن حرب اعداء في داخله الى حرب اعداء في خارجه . ولذلك كان في مستطاعه ان يعيش مع الناس في سلام . فهو ، اذ يسعى الى الحياة والحرية ، لايعتمد في الدفاع عنها على سلاح من الحديد والنار . لانه يعلم ان الحديد يفله الحديد ، والنار تأكلها النار . ولكنه يتسلح بالايمان الذي

هو اقوى من النار وامضى من الحديد بمالايقاس . ومن كان ذلك شأنه من حياته كان ثابتاً في الزمان والمكان ثبوت الحياة .

اما الذين يفتشون عن حياتهم و حريتهم في سلب غيرهم الحياة والحرية ، وعن سلمهم في شن حروب لانهاية لها على سواهم ، فمقضي عليهم بان يبقوا ريشة في مهب الريح . إذ انهم كما يسلبون يسلبون ، وكما يحاربون يحاربون . وهم ابداً ينتهون حيث يبتدون ، ويدورون في حلقة مفرغة ولا يعلمون .

هي امنية طويت عليها جوارحي منذ ان انفتح قلبي للنور . وهي ان ينفض الشرق عنه خيال الاجيال ، ويفلت من شباك الدعاوات الخسيسة والمهاترات السخيفة التي تبث سمومها في الارض بغير انقطاع ، ومن الطقوس الجافة والتقاليد البالية ، ويعود فيرفع مشعل الهداية في العالم ، ويسلك به الطريق المؤدي من الموت الى الحياة ، ومن العبودية الى الحرية ، ومن الحرب الى السلم ، ومن فاقة الارض الى بحبوحة السماء .

الفهرس

الصفحة		
١	العلم : وسيلة وثقافة	للدكتور فؤاد صروف
٢٩	اثر الحركات النسائية في نهضة الشرق العربي	للدكتورة درية شفيق
٤٣	كيف يمكن ان نفهم الحرية ؟	للاستاذ فؤاد الشايب
٧١	شبابنا في الحياة الاجتماعية العربية	للسيدة امينة السعيد
٩٥	اثر الحركات الفكرية في بناء الأمم	للدكتور محمد حسين هيكل
١١٧	تنبه الوعي القومي عند العرب	للدكتور احمد امين
١٣٠	في مهب الريح	للاستاذ ميخائيل نعيمة

تصويبات

وقعت اغلاط مطبعية لا تخفى على فطنة القارئ يرجى اصلاحها

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٦	٨	بالمكتشفات	بالمكتشفات
٦	١١	ابذكر	اذكره
٧	٧	دق	ادق
١٤	١٤	ماناًكل	نأكل
٢١	١	وماذ	وماذا
٢٤	١٩	لم تلبس	لم تلبث
٢٧	٧	من اسوار	من اسرار
٤٧	١٤	حتى ليته	حتى ليتيه
٥٣	٢٣	لايلبسون	لايلبثون
٦١	١٣	ونمازج	ونماذج
١٠٢	١٥	وجاء عسى	وجاء عيسى
١٠٤	١٢	ففهي	فهي
١٠٤	١٩	بجهوهر	بجوهر
١٠٥	٣	لماضي مجيد	لماض مجيد
١١٠	١٤	اليكم مثلان	اليكم مثلين
١١٣	١٥	الوسائج	الوشائج
١٢٣	٤	كانو	كانوا
١٢٦	١٨	لم تتخذ	لم تتحدّ
١٢٧	٧	يعاملوها	يعاملونها
١٣٤	٥	فتغدوا	فتغدو
١٣٥	٥	استقرار	استقراره
١٣٦	٢٤	للنهضوض	للنهوض
١٣٩	٢١	ان يستغي	ان يستغني
١٤٠	١	سوادا	سودا
١٤١	٢٦	بالدعاواة	بالدعاوات
١٤٤	١	اعاليها	اعاليها
١٤٥	١٢	ن	ان

DATE DUE

حلب. دار الكتب الوطنيه
المحاضرات العامة لعام ١٩٥٢-١٩٥٧
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01039829

089.927
D213mA
1953
c.1